أولادنا

٥٠

تأليف : يعقوب الشارونى
رسوم : عبدالرحمن نور الدين

أسرار بيت الطالبات



دار المعارف

أولادنا

٥٠

أسرار بيت الطالبات

تأليف : يعقوب الشارونى
رسـوم : عبد الرحمن نور الدين

دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الشارونى ، يعقوب .
اسرار بيت الطالبات / تاليف : يعقوب الشارونى ،
رسوم / عبد الرحمن نور الدين .
ط ١ـ القاهرة : دار المعارف ، (٢٠١٠) .
٧٦ ص : ١٩.٥ سم . (اولادنا : ٥٠)
تدمك : ٥ ـ ٧٤٣٧ ـ ٠٢ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨ .
١ـ قصص الأطفال .
أـ نور الدين ، عبد الرحمن (رسوم) . ب ـ العنوان .

ديوى ٨١٣,٠١

رقم الايداع ١٣٨٩٨ / ٢٠١٠ ٣/ ٢٠١٠ /٧



تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

أسرار بيت الطالبات

١

كانَ الظَّلامُ يَنتشِـرُ خارجَ نافِذةِ غُرْفَـةِ بَيْتِ الطَّالِبَاتِ التابع لكلية التربية بجامعةِ قنَا، عِندَما أشـارَتْ عقاربُ السَّـاعَةِ إلى السَّـابعةِ، فاضطرَّتْ شـيْماءُ إلى جَذبِ كَتِفِ زَميلَتِها ياسمين تنبِّهُها:

«سـيُغْلِقونَ البابَ الخارجيَّ!. كيف تسْـتطيعُ رجاء مُواجَهَةَ مُديرَةِ البَيْتِ؟».

ومِنْ فَوْقِ سَريرِها، وبغيْرِ أَنْ تتوقَّفَ ياسمين عن تقْليبِ صَفَحاتِ مَجلَّةٍ تتصفَّحُها، قالَتْ:

«مُديرَةُ البَيْتِ ليستْ هى المشكلةُ!!».

تزايَـدَ قَلَقُ شـيماء لأنها تعرِفُ عنْ رجـاء ما لا تعرِفُهُ ياسمين: «إذا استطاعَتْ رجاءُ الإفْلاتَ من حِسابِ مُديرَةِ البَيْتِ، فكَيْـفَ تواجهُ أهلَها ولهم معَها فى بدايَةِ كُلِّ عامٍ معركةٌ حَوْلَ مُواصَلَةِ دراسَتِها؟!».

وارتفعَ طَرْقٌ علَى البابِ ..

وبغيْرِ أنْ تأذنَا للطَّارقِ بالدُّخولِ، وجدَتا «أبلة ابتهاج» مُديرَةَ بَيْتِ الطَّالباتِ تقفُ فى وَسَطِ غُرْفَتِهما..

أدارَتْ «أبلة ابتهاج» عَيْنيْها تُفتِّشُ الغرْفَةَ، ثم تساءلَتْ فى حِدَّةٍ : «أيْنَ رجاءُ؟!!».

ولم تجبْ شيْماءُ بينما تظاهرَتْ ياسمينُ بالنَّوْمِ.

وأعـادَتِ ابتهاجُ سُـؤالَها بطَريقَةٍ توحِـى بأنها تتَّهِمُ البنتيْنِ بالتآمُرِ لإخْفاءِ رجاءَ!

قالَتْ شيْماءُ بعدَ تردُّدٍ :

«بَيْتُ الطَّالباتِ مُتَّسِعٌ .. لعلَّها تزورُ صَديقةً لها!».

تزايدَتِ النَّبْرَةُ الحادَّةُ فى لَهْجَةِ ابْتِهاج :

«التَّعليماتُ تفْرِضُ على كُلِّ طالِبَةٍ أن تكونَ فى غُرْفَتِها عندَ السَّـابعَةِ لأتأكَّـدَ مِنْ وُجودِها قبـلَ انْصِرافـى .. هل ذكَرَت أينَ ذهبَتْ؟».

وتردَّدَتْ شيْماءُ ثانِيَةً .. هل يُمكِنُ أن تكونَ معَ أستاذتِها



الدُّكتورَةِ هناء فى الاستراحةِ المُخصَّصَةِ لِمَبيتِ السَّيِّداتِ من أعْضاءِ هَيْئةِ التّدريسِ؟

همسَتْ لِنفْسِها : «رجاءُ لا تأتمِنُ أحدًا علَى كُلِّ ما تنُوءُ به مِنْ أسْرارٍ إلا الدُّكْتورَةَ هناء، والدُّكتورَةُ وصلَتْ صَباحَ اليَوْمِ مِنَ القاهرةِ ولنْ تعودَ قَبْلَ مَساءِ الغدِ !».

لكَنّها قرَّرَتْ أن تكتمَ خواطِرَها فقالَتْ :

«لَمْ تتعوَّدْ رجاءُ أن تُخبرَنا بتحرُّكاتِها !».

تزايدَتِ الحِدَّةُ فى صَوْتِ «أبلة ابتهاج» :

«والدُها جاءَ يَسألُ عنها.. إنه الآنَ فى مكتبِى يُصِرُّ - فى عَصبيَّةٍ - على رؤيتِها لأمرٍ بالِغِ الأهمِّيةِ؛ وإذا شعرَ بغيابها وأننا لا نعرفُ أينَ ذهبَتْ؛ فقد يَمْنعُها من الاسْتِمْرارِ فى دِراسَتِها !».

وتنبَّهَتْ «أبلة ابتهاج» إلى أنَّ ياسمين قد فتحَتْ عينيْها عن آخرِهِما تُتابعُ الحَديثَ بيَقظَةٍ شديدَةٍ فأشارَتْ إليها:

«اذْهَبى يا ياسمين ابْحَثِى عنها معَ شيماء.. لابدَّ من حُضورِها فورًا إلى مَكْتبى..».

ثم أســرَعْت تُهَيِّئُ نفْسَــها لِمُواجَهةِ نفادِ صَبْرِ «الحاج عبد المنعم» والدِ رجَاء.

٢

لم تكُنْ شيماءُ وياسمينُ ترحِّبانِ – هُما أيضًا – بحَياتِهما فــى بَيْتِ الطالِبَاتِ، لَكِــنَّ زَميلتَهُما رجاءَ التى لا يَعْرِفانِ الآنَ أيْــنَ اختفتْ؛ هِىَ التى كانتْ تردِّدُ دائمًا: «خرجْنا من أسْوارِ عائلاتِنا؛ لِنعيشَ فى هَذا البَيْتِ الذى يُحيطُ به ســورٌ واحِدٌ يضمُّهُ مع الكُـلِّيَّةِ الوَحيدَةِ التِى لمْ يســمحْ لنا أهلُنا بدُخولِ غَيْرِها!».

فكانتْ شيماءُ تضيفُ:

«بــل هِــىَ أسْــوارٌ تلتــفُّ حَــوْلَ كُلِّ كَلِمَــةٍ أو حَرَكةٍ تصدرُ عنّا».

* * *

وعادَتْ شيْماءُ تتأمَّلُ السَّاعةَ كَبيرَةَ الحَجْمِ فَوْقَ مِعْصَمِها، وهِىَ تخْشى أَنْ تكونَ رجاءُ قد تأخَّرَتْ بسَبَبِ مأزقٍ قابَلَها



فى إحدى مُغامَراتِها الجَريئةِ التى شـارَكَتها فى بعضِها؛ لِلخُروجِ إلى قنا والتعرّف على المدينة، مُتحدية تلك الأسْوارَ المُحيطَةَ بهِنَّ، قالت:

«لَسْـتُ أفهمُ أيْنَ ذهبَتْ!! لم نرَهـا منذُ غادَرْنا قاعَةَ الطَّعامِ فى الصَّباحِ».

ثُـمَّ أضافَتْ: «هل لاحَظْتِ أنهـا لم تضعْ لُقْمَةً واحِدَةً فى فَمِها؟!».

وفى اسْـتِهانةٍ جاءها رَدُّ ياسمين: «أنـتِ دائِمَةُ القَلَقِ يا شيماءُ.. ستظْهَرُ رجاءُ بَعْدَ قَليلٍ..».

وتذكَّرَتْ شيْماءُ رَأىَ والِدِها - مُديرِ فَرْعِ البَنكِ التّجارىِّ المِصْـرِىِّ بالأقْصُرِ - عندَما شـاهَدَ رجـاء معَها لأوَّلِ مَرَّةٍ، فَرَدَّدَتْ قَوْلَهُ: «رجاءُ تُعَرِّضُ نفْسَـها لِمَشاكِلَ لَنْ تستطيعَ يومًا الخُروجَ منها!».

ولمْ تجِـبْ ياسمين، بل ألقَتِ المجَلَّةَ إلى جانِبها وهى تغادِرُ فِراشها بَيْنما تهْمِسُ قائلَةً:

«هِىَ قادِرَةٌ على مُواجَهَةِ أيَّةِ مَشاكِلَ!».

همسَتْ شيْماءُ كأنما تحدِّثُ نفسَها :

«تثيرُ المُشْكِلاتِ ثُمَّ تعانِي للتّغلُّبِ علَيْها !».

وعِندَمَا لمْ تعلِّقْ ياسمينُ بشيْءٍ، وهِيَ تتهيَّأُ لِلخُروجِ من الغرْفَةِ مَعَ شيْماء للبَحْثِ عن رجَاء، أضافَتْ شيماءُ وهى تتذكَّرُ مَشْروعَ الزّواجِ غَيْرِ المُتكافِئِ الذى تريدُ أسْرَةُ رجَاء أنْ تفْرِضهُ علَيْها :

«ولعلَّ المُشكِلاتِ هِيَ الّتى تبْحَثُ عنها !».

* * *

كانتِ الغرْفَةُ تضُمُّ أرْبَعَةَ أماكِنَ لِلنّوْم، اثنيْنِ عُلْويَّيْنِ تحْتَ كُلٍّ مِنهُما فِراشٌ آخرُ. ومُنذ بدأ العامُ الجامِعِيُّ قَبْلَ شهْرٍ، اختارَتْ رَجاءُ الفِراشَ الّذى يَعْلُو سَريرَ صديقَتِها شيْماء. أمَّا الفِراشُ الرَّابعُ فَوْقَ سَريرِ ياسمين فلمْ تكُنْ صاحِبَتُهُ قد وصلتْ بعد.

وطَوالَ اللّيْلَةِ السَّابقَةِ كانتْ شيماءُ تسمَعُ رجاءَ تتقلَّبُ

فى فِراشِها، فأدركَتْ أنها تُعانِى منْ هُمومٍ تقْلِقُها وتحْرِمُها النَّوْمَ الهادِئَ، بعدَ أنْ تلقَّتْ قَبْلَ مَوْعِدِ النَّوْمِ مُكالَمَةً تِليفونِيَّةً غامِضَةً !

٣

عاوَدَ «الحاجُّ عبدُ المُنعِمِ الجَمايلى» سُؤالَهُ لأبْلَة ابْتهاج وهُوَ يَكادُ يَصيحُ مِنْ شِدَّةِ الانفِعالِ :

«لماذا تخْفونها عَنّى ؟! ! هَلْ يُمكِنُ أنْ تقِفَ الجامِعَةُ مَعَ طالِبَةٍ ضِدَّ والِدِها ؟! .. أنتِ تعْرِفينَ يا «سِتّ ابْتِهاج» أنّنى أنا الَّذى واجَهْتُ كُلَّ اعْتراضاتِ عائِلَةِ «الجمايلية» حَتَى أدْخلْتُها الجامِعَةَ ! ».

أجابَتِ ابْتِهاجُ فى مُحاوَلَةٍ لِتهْدِئَتِهِ :

«ومَنْ يَنسَى هذا يا حاجُّ ؟! ستَجِىءُ فَوْرًا ..».

* * *

«أبلة ابْتِهاج» تعْرِفُ الحاجَّ عَبْدَ المُنعِمِ منذُ أرْبَعِ سَنواتٍ، عندما جاءَ لأوَّلِ مَرَّةٍ مُصْطَحِبًا ابْنتهُ رجاءَ



لِيَتعــرَّفَ عَلَى بَيْتِ الطَّالِباتِ والمُشْـرِفاتِ عليهِ ، قبلَ أَنْ يُعطِــيَ موافقتهُ النّهائِيَّــةَ علَى ابْتِعادِ ابْنتِــهِ عن قَرْيَتِهم «الشريفية».

بعدَهــا بدأتْ رجاءُ دِراسَــتها بكُـلّيَّــةِ التّرْبيةِ ، تبيتُ لأوَّلِ مَرَّةٍ بَعيدًا عَنْ بَيْتِ والِدِها ، سِــتّةَ أيَّام كُلَّ أسْــبوعٍ ، فــي مَدينةِ قنا الَّتى تبعُدُ ســاعَةً ونِصْفَ السَّــاعَةِ بالقِطارِ البَطيءِ ثمَّ ســاعَةً أخرَى بسَيَّارَةٍ مُزْدَحِمَةٍ مُتراكِمَةٍ «بالنَّفَرِ» إلى قَرْيَتِهم «الشريفية».

ومُـنــذُ ذلِكَ اليَــوْمِ، والأبُ يَرَى فى «سِــتّ ابْتِهاج» الأخــتَ الكُبْرَى لِرجاء، بَل اعْتبَرهــا الأمَّ الثّانِيَةَ لَها بَعْدَ وَفاةِ والدَتِها مُنذُ سَنواتٍ.

(٤)

وَقَـبْـلَ أن يَسْترْسِـلَ الأبُ فى عِباراتِــهِ الغاضِبَةِ الّتى يُمْكِنُ أن تسبِّبَ كَثيرًا مِنَ المَشاكِلِ لابْتِهاج ، فوجئتْ ببابِ مَكْتبِها يُفْتحُ ..

كانَ الدَّاخِــلُ يَفْتحُهُ ببُطْءٍ بغــيْرِ أن يَطْرُقَهُ، ومعَ ذلك تنهَّدَتْ فى ارْتِياحٍ؛ فقد توقَّعَتْ أن تكونَ رَجاء.

لكنهــا، فى خَيْبَــةِ أمَــلٍ، اكتشــفَتْ أن القادِمَةَ هِىَ الدُّكْتورَةُ هناء أستاذةُ عِلْمِ النَّفْسِ بكُلـِّيَّةِ التّربيَةِ.

همسَتْ « أبْلَة ابْتِهاج » لِنفْسِها بسُرْعَةٍ:

«كَيْفَ لَمْ أتذكَّرِ الدُّكْتورةَ هناء؟!.. كُلُّ مَنْ فى الكُـلِّيَّةِ يَعْرِفُ مَدَى تعَلُّقِ رجَاء بأسْتاذتِها!».

ألقَتِ الدُّكْتورَةُ هناءُ التّحِيَّةَ فى هُدوءٍ..

وتطلَّــعَ إليهــا الأبُ الَّذى يَتصــارَعُ داخِلَــهُ القَلَقُ مع الغضبِ وهُوَ لا يَعْــرِفُ مَنْ هِىَ، لذلكَ لمْ يَتوقَّعْ أن يَكونَ وجودُهُ هُوَ سَبَبَ مَجيئِها؛ فتمْتمَ بغيْرِ حَماسٍ:

«وَعَلَيْكُمُ السَّلامُ..».

بَيْنما ســارَعَتْ «أبلة ابتهاج» تقولُ فى حَماسٍ: «أهْلاً يا دُكْتورةُ هناء.. هَلْ معَكِ أحَدٌ؟».

فَجْــأةً ظهرَ الاهْتِمــامُ واضِحًا عَلَى مَلامِــحِ الحاجِّ عَبْدِ المُنعِــمِ؛ فكَثيرًا ما كانتِ ابْنَتُهُ رجاء تذكُرُ اسْــمَ الدُّكْتورَةِ

هناء فى أحاديثِها معَهُ أثناءَ وُجودِها فى القَرْيَةِ : «تناولْتُ الغداءَ مَعَ الدُّكتورَةِ هنــاء ..» و «هَذا الثَّوْبُ اختارَتهُ مَعى الدُّكْتورَةُ هنــاء ..» و «الدُّكْتورَةُ هناء هنَأتنِى لِحُصولى عَلَى أكْبَرِ دَرَجَةٍ فى أبْحاثِ أعْمالِ السَّنةِ ..».

وعــادَتْ «أبلة ابتهاج» تقــولُ لِلدُّكْتــورَةِ تعَرِّفُها به : «الحاجُّ عَبْدُ المُنعِم الجمايلى، والِدُ رجاء».

ثُمَّ تمهَّلَتْ قَبْلَ أنْ تضيفَ :

«يُريدُها فَوْرًا لِشَىْءٍ مُهِمٍّ ..».

التفتَــتِ الدُّكْتورَةُ إلى الحاجِّ وَهِىَ لا تزالُ حَريصَةً على هُدوئِها :

«خيْرٌ يا حاجُّ .. هَلْ حَدثَ شَىْءٌ فى البَلَدِ ؟».

وأحَسَّ الحاجُّ بشَــىْءٍ من الحِيرَةِ، ذلِكَ أنَّ طَريقَةَ إلْقاءِ الدُّكْتورَةِ لِسُؤالِها يَدُلُّ بوُضوحٍ عَلَى مُتابَعَتِها لِما يَحْدُثُ فى الشَّــريفيَّةِ مَعَ أنَّ الحاجَّ يَراهَا الآنَ لأوَّلِ مَرَّةٍ، لكنه سَيْطَرَ عَلَى مشــاعِرِهِ وقالَ فى لَهْجَــةٍ لم يَنجَحْ فى إخفاءِ مَا بهَا مِنْ ضِــيقٍ :



«وماذا يُمْكِنُ أن يَحدُثَ فى قَرْيَةٍ كالشّريفيَّةِ ؟!».

وفُوجِئَ بالدُّكْتورَةِ تقولُ فى تأكيدٍ :

«رَجــاءُ مِنْ أفْضلِ طالِباتِى .. إنْ شــاءَ اللّهُ تحصُلُ بَعْدَ شهور عَلَى البَكالوريوس بتفَوُّقٍ».

تمهَّلَ الأبُ قَبْلَ أن يُجيبَ : «كُنّا نتوقَّعُ أن تنتهِىَ مِنْ دراسَــتِها فى العام الماضى !.. لِماذا أعادَتِ السَّنةَ النّهائِيَّةَ وهِىَ المُتفوِّقَةُ التى لَم يَسْــبقْ أن أعادَتْ أيَّةَ ســنةٍ دِراسِيَّةٍ مِنْ قَبْلُ ؟!».

وَحاوَلَتِ الدُّكْتورَةُ هناءُ أَنْ تتهَرَّبَ مِنْ إجاباتٍ مُباشِرَةٍ لتلكَ التّســاؤلاتِ، فهِىَ تعْرِفُ أنَّ رَجاءَ تعمَّدَتِ التّخلُّفَ عَــنْ بَعْضِ امْتِحاناتِ العام الماضِــى بحُجَّةِ المَرَضِ، وذلِكَ بقَصْــدِ إعــادَةِ العام الدِّراسِــىِّ، لعَلَّها تنجَــحُ فى تأجيلِ الحَديثِ عَنْ مَشْروعَاتِ الزّواجِ الَّتى لا يَكُفُّ ابْنُ عَمِّها عَنْ مُواصَلَةِ الحَديثِ عَنها مَعَ والِدِها.

قالَتْ : «سَنةٌ دِراسِيَّةٌ لَنْ تزيدَ أو تقلِّلَ مِنْ عُمْرِ الإنسْانِ.. لَيْسَ هُناكَ مِنْ سَبَبٍ لِلاسْتِعْجالِ ..».

ثــمَّ أضافَــتْ : «ومــاذا يَفْعَلُ الإنســانُ فــى مُواجَهَةِ المَرَضِ ؟ ! ».

وفى وُضوحٍ قالَ الأبُ : «المَسْــألَةُ ليسَتِ المَرَضَ أو سنةً تعيدُهــا .. رَجــاءُ لا تريــدُ أَنْ تنتهِــىَ مِنْ دِراسَــتِها .. قالَــتْ أكْثرَ مِنْ مَرَّةٍ إنَّــكِ تشــجّعينها عَلَى عَــدَمِ الاكْتِفاءِ بالبكالوريوس ..».

تدخّلَــتْ «أبلــة ابتهــاج» : «وهَلْ هُنــاكَ مَــنْ يَكْرَهُ التّعليمَ ؟ ! ».

وتذكَّــرَ الأبُ سَــبَبَ مَجيئِــهِ، فَقَرَّرَ أن يُغَــيِّرَ مَجْرَى الحَديثِ .. قالَ :

«لماذا نتحدَّثُ فى شــئونِ رجاء أثناءَ غِيابِها ؟ ! إنَّها لَمْ تحْضُرْ حَتّى الآنَ ! ».

فى صَراحَةٍ قالَتِ الدُّكْتورَةُ : «رَجاءُ فى غُرْفَتِى باسْتِراحَةِ الأساتِذَةِ».

وفى لَهْجَةٍ لم يَسْــتَطِعِ الأبُ إخْفاءَ مَا بِهَا مِنْ غَضَبٍ : «ولماذا لَمْ تحْضرْ معَكِ ؟ ! ».

قالَتِ الدُّكْتورَةُ : «جئتُ أطَمْئِنكَ عَلَيْها».

فـي انفِعـالٍ قـالَ الأبُ ثائِـرًا : «هِـيَ تتهـرَّبُ مِنْ مُواجَهتِي !».

قالَتِ الدُّكتورة هناءُ في غَيْرِ انفِعالٍ كأنهَا لا تدْركُ سَبَبَ ثوْرَتِهِ : «لماذا لا سمَحَ اللّهُ ؟!».

قـالَ الأبُ : «لا مَفَـرَّ مِـنْ عَوْدَتِهـا مَعـى الآنَ إلى الشريفيَّةِ !».

تظاهرَتْ هناءُ بالدَّهْشةِ الشديدَةِ :

«هكذَا فجْأةً ؟! ماذَا حَدَثَ فى الدُّنيا ؟!».

ووجَّهَ الأبُ بصرَهُ إلى «أبلة ابتهاج» وقالَ فجْأةً فى عتابٍ مَريرٍ :

«كيفَ تسمحُونَ لطالبةٍ أَنْ تسافِرَ إلى الأقصرِ وحدَها بغيرِ عِلْمِ أهلِها ؟!!».

فُوجئتِ ابتهاجُ وشعرَتْ بالحيرةِ : «نحنُ لا نسمحُ لأحدٍ بالسفرِ !».



وَفِى تأكيدٍ قالَ الأبُ :

«رجاءُ كانتْ فى الأقصرِ منذُ يومَيْنِ .. أَنتمْ لا تعرفــونَ وأنا لم أكُنْ أعرفُ ، لكنَّ بعضَ أهالى الشريفيةِ شاهدوها هناكَ ! .. لَنْ تبقَــى رجاءُ يومًا واحدًا بعدَ الآنَ فِى قنَا ..».

حاولَــتِ الدكتورةُ هناءُ أن تُســيطِرَ على ما اعتراها من اضطرابٍ :

«لكنكَ لم تســألْها ... مَــنْ أدْراكَ أنَّ الذينَ نقلُوا إليكَ الخبرَ كانُوا صادقينَ ؟ !».

صاحَ الأبُ فِى تأكيدٍ : «إنهمْ ثلاثةٌ ! !.. هَلْ يُمكِنُ أنْ يكذبَ ثلاثةٌ أو تخدعَهم أبصارُهم ؟ !».

قالَــتْ هناءُ فى حــزمٍ : «إذن لا نتعجَّــل إلى أَنْ تأتِىَ رجاءُ ..».

وخرجَتِ الدكتورةُ هناء تمســكُ بيدِ ابتهاج لاستعجالِ مَجىءِ رجاء.

٥

عادَتا بعــدَ دقائقَ ومعَهُما رجاءُ، يُشِــعُّ ذكاءٌ واضحٌ

من عينيْها الواســعتيْنِ الســوداوَيْنِ، مُتناسِقةُ الملامحِ، سمراءُ، تؤكِّدُ تعبيراتُ وجهِها قوّةَ الشخصيةِ والاعتزازَ بالنفسِ.

مـا إنْ رأى الوالـدُ ابنتـهُ حتَّى ظهرَ عليـه تحوُّلٌ مِنَ الصعبِ تَصْديقُهُ !

كانَ منَ الواضحِ أنهُ لمْ يتعوَّدْ أنْ يواجهَ ابنتهُ بغضبِهِ.

بغيْرِ تحيَّةٍ قالَ : «انتظرْتكِ طَويلاً !».

قالَتْ : «خيْرًا يا والِدى ..».

قالَ فى حَزْم : «سنعودُ مَعًا إلى البَلَدِ ..».

قالَتْ فى دَهْشــةٍ مُصْطَنعةٍ : «لَسْــنا فى يَوْمِ الخَميسِ أو الجُمْعَةِ ؟!».

أجابَ باختِصارٍ : «أحْضِرى حَقيبَةَ ملابسِكِ !».

تســاءلَتْ وقَــدِ ازْدادَتْ دَهْشــتهَا : «فى هَــذا الوَقْتِ المُتأخّرِ ؟!».

قالَ : «إنـهمْ يَنتظِرونَنَا ..».



قالَــتْ : «ما دُمْتَ أنتَ هُنا يا والِدِى، لَنْ يَكُونَ هُناكَ آخرونَ فى انتِظارِى !».

قــالَ : «تعْرفينَ أنَّ ابْنَ عمِّكِ مصطفَــى يَـنـتـظِرُكِ منْذُ سَنواتٍ ..».

قالَــتْ : «كُنتُ فى البَلَدِ مُنــذُ أربعَةِ أيَّامٍ .. ما الجَديدُ غَيْرَ رَغْبَتِهِ المَحْمومَةِ فى شِراءِ أرْضِنَا ؟!».

ســألَ الأبُ ابْـنـتَـهُ فَجأةً : «ماذَا كُنتِ تفْعَلينِ وَحْدَكِ فى الأقْصُرِ مُنذُ يَوْمَيْنِ ؟!».

تردَّدَتْ ..

قالَ وقد لاحَظَ تردُّدَها : «البلَدُ امْتَلأتْ بالإشاعاتِ !..».

تمالكَــتْ نفْسَــها : «ثِقتُكَ بــى كانتْ دائِمًــا أكْبَرَ مِنَ الأقاويلِ !».

قالَ فى اتّهامٍ : «كُنتِ تركبينَ هُناكَ عَرَبةَ «حنطُور» مَعَ رَجُلٍ غَريبٍ !!».

قالَــتْ فى غُموضٍ : «العَــوْدَةُ مَعَــكَ الآنَ تؤكِّدُ صِدْقَ الإشاعَةِ !».

قالَ : «مصطفَى ابْنُ عَمِّكِ أقْسَمَ أنْ يأتِيَ ليأخُذكِ بالقُوَّةِ مِنْ هُنا صَباحَ الغدِ إذَا لمْ تعودِى مَعِى اللَّيْلَةَ !».

قالَتْ فى تحَدٍّ : «لَنْ يَجْرؤَ !.. لَنْ يأخذَ الأرْضَ ولَنْ يأخذنِى .. الجامِعَةُ لها حُرَّاسٌ وأسْوارٌ !».

قالَ : «هَذِهِ المَرَّةَ الشّريفِيَّةُ كُلُّها تسانِدُهُ .. يَلُوموننى لأننِى ترَكْتكِ وَحْدَكِ هُنا كُلَّ هَذِهِ السَّنواتِ .. لم يَعودُوا يُصدِّقوننِى عندمَا أقولُ لهم: إنَّ الرِّقابَةَ شديدةٌ فى الجامِعَةِ كما هِىَ فى الشّريفِيَّةِ .. اتّهاماتُ أهْلِ القَرْيَةِ تطاردُنى بقَسْوَةٍ !».

قالَتْ : «واجَهْنا مِثلَها كَثيرًا مِنْ قَبْلُ .. لماذَا نضعُفُ الآنَ ؟!».

قالَ : «هَذِهِ المَرَّةَ كُلُّهُم يُصدِّقونَ الاتهامَ .. يَقولونَ إنَّكِ تهْرُبينَ منَ الكُلِّيَّةِ لِتُقابلى رَجُلاً أنتِ عَلَى عَلاقَةٍ به فى الأقْصُرِ !!».

صاحَتْ فى تحَدٍّ :

«كَذِبٌ .. كُلُّ هَذا كَذِبٌ».

قالَ وقــد تقلَّصَتْ مَلامِحُ وَجْهِهِ تفْصِحُ عَنْ ألمٍ نفْسِــيً لاَ يسْتطيعُ تحمُّلَهُ :

«لَكِنــكِ لن تجْرُئِى عَلَى العَوْدَةِ بَعْدَ الآنَ إلى الشّــريفِيَّةِ والإشــاعاتُ تطارِدُكِ .. بَلْ .. لَنْ أجرُؤ أنا علَى العَوْدَةِ إلى هُناكَ إلا وأنتِ مَعِى».

صاحَتْ وقد طفرَتْ دَمْعَةٌ مِنْ عينيْها : «هَلْ وصَلَ الأمرُ إلى هَذا الحَدِّ ؟».

صاحَ فى ألَمٍ :

«وأكثرَ مِنْ هَذا ...».

قالَتْ مِنْ بَيْنِ دُموعِها :

«هَلْ هُناكَ ما هُوَ أكْثرُ ؟ !».

قالَ فــى ثوْرَةٍ : «مصطفــى ابْنُ عَمِّكِ يُهـدِّدُ بغسْـــلِ العــارِ ! !.. صاحَ فى وَجْهى بأنكِ تعْرِفينَ جَزاءَ مَنْ تلوِّثُ سُمْعَةَ أسْرَتِها ! ! ».

صاحَتْ وقَدْ تفجَّرَتْ دُموعُها كالشّلاَّلِ :



«وأنتَ تكرِّرُ أقوالَهُ هَذِهِ يا أَبى؟!!».

قــالَ وقد غلبَهُ التّأثرُ: «الإشــاعَةُ التى يُصدِّقُها النّاسُ مِثلُها مِثلُ الحَقيقَةِ البَشِعَةِ التى لا يُمكِنُ إنكارُهَا!».

لمْ تُجبْ، فَأضافَ:

«إلاَّ إذَا ...».

ولم يَسْتَطِعْ إكْمالَ عِبارَتِهِ ..

سألَتْ:

«إلاَّ إذَا ماذَا؟».

قالَ وهُوَ يَنتَزِعُ الكَلِماتِ مِنْ فَمِهِ انتِزاعًا:

«إلا إذا تمَّ زَواجُكِ مِنْ ابْنِ عَمِّكِ مصطفىَ، فَيتأكَّدَ النّاسُ أنَّ الإشاعَةَ غَيْرُ صادقَةٍ!».

ولأنَّ إجابَــةَ الوالِدِ كانتْ صادقَــةً كُلَّ الصِّدْقِ مَعَ أنّها ظالِمَةٌ كُلَّ الظُّلْمِ، فإنَّ رجَاء لمْ يُسْعِفْها مَا تُجيبُ به ..

ولم يَجدِ الأَبُ فى طاقَتِهِ أنْ يَقولَ أكْثر مِمَّا قالَ .. لَكِنَّ رجاء كانتْ مُصمِّمَةً عَلَى عَدَمِ العَوْدَةِ ..

وكانَ هُو يَرَى أنَّ عَوْدَتها مَعَهُ فيهَا أمَلُ الإنقاذِ الوَحيد، معَ أنَّهُ يعرفُ أنَّ زَواجَها مِنْ مصطفىَ ابْنِ أخيهِ يَسْتحيلُ فَرْضُهُ عَلَيْها مَهْما كانتِ المُبرِّراتُ!

إنَّها ابنتُهُ وهُوَ يَعْرِفُها جيِّدًا !..

لِماذا إذنْ تسبَّبَتْ فى هَذا المَوْقِفِ الرَّهيبِ؟.

٦

كانُـــوا كُلُّهم : الحاجُّ عبدُ المنعم والدُّكتـــورَةُ هنَاء وأبلة ابتهاج، ورجاءُ أيْضًا.. كُلُّهم يَعْرِفُونَ جَيِّدًا المَعْنى الفَظيعَ لِقَوْلِ أهْلِ قَرْيَةِ الشَّـــريفِيَّةِ عَنْ رجَاء إنهَا كانتْ وَحْدَها فى الأقْصُر مَعَ «رَجُلٍ غَريبٍ» داخِلَ عَرَبَةِ حُنطورٍ !.

الأقْصُرُ مَدينةٌ تمــُوج بالأغْرابِ.. إنّهم فيهَا أكثرُ عَدَدًا مِنْ أهْلِها ولَنْ يَسْــألَ أحَدٌ عَنْ سَــبَبِ مَجىءِ أىِّ شــخْصٍ إليهَا، بلْ لَنْ يتوقَّفَ لِيَسْألَ نفْسَهُ : مَنْ هُوَ هَذا الغريبُ، فمُعْظَــمُ مَــنْ بها ضيوفٌ جَاءوا مِنْ أنحــاءِ الدُّنيا ومِنْ كُلِّ مَكانٍ فى مِصْرَ المُتَّسِــعَةِ.. جَــاءوا لِزيارَةِ المَدينةِ الَّتى تضُمُّ نِصْفَ آثار العالَمِ...

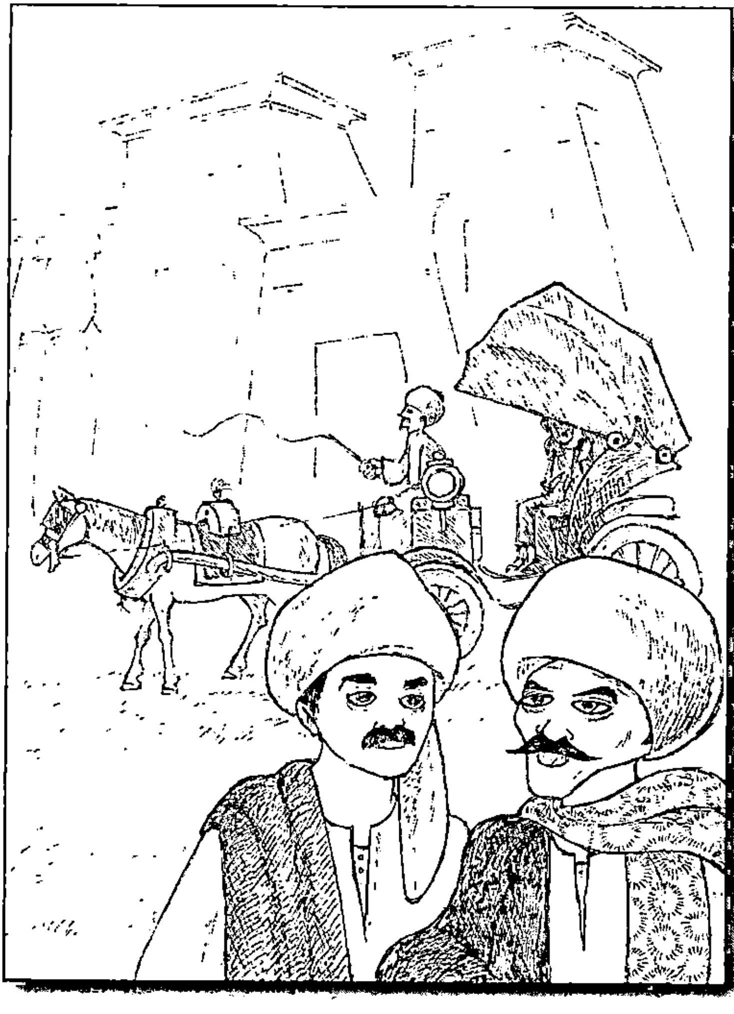
حَتَّـى أهْلُ قنا والقُرَى المُجاورَةِ لَها، لَيْسَ مِنَ الغريبِ أن نراهُـمْ فى «جَماعـاتٍ» بالأقْصُرِ، فَهُـمْ يَذْهَبونَ إليها لِمُشاهَدَةِ الآثار أحْيانًا ولِلنزْهَةِ فى أحيانٍ أخرَى.

إنهَا تبْعُدُ سـاعَةً واحِدَةً بسَـيَّاراتِ الأجْرَةِ عن مَدينةِ قنا، ومَنْ أرادَ ألاَّ يُثيرَ انْتِباهَ أحَدٍ، ما علَيْهِ إلا التَّسلُّلُ إلى الأقْصُرِ. يَخْتفِى فى زحَامِ الوافِدِينَ؛ حَيْثُ لَنْ يتساءلَ أىُّ شـخْصٍ عَنْ سَـبَبِ مَجيئهِ إلَّا إذا أوقعَهُ سوءُ حظِّهِ تحْتَ بَصَرِ شخْصٍ يَعْرِفُهُ.

لذلـكَ فإنَّ اكْتِشـافَ أهْلِ الشَّـريفِيَّةِ وُجـودَ فَتاةٍ مِنْ بَناتِ القَرْيَةِ؛ فى الأقْصُرِ مَعَ رجُلٍ غَريبٍ، وَحْدَهُما؛ فى عَرَبةِ حنطورٍ، يُعْتَبَرُ تُهمَةً شـائِنةً لا تقْبلُ التَّشـكيكَ فى مَدْلولِها!!

٧

لَكِـنَّ رجاءَ لَمْ تكُنْ واثِقةً مِـنْ قَوْلِ والِدِها إنَّ ابْنَ عَمِّها مصطفَى مُصَمِّمٌ علَى عَوْدَتِها اللَّيْلَةَ «لِيتزوَّجَها».



لقَــدْ رَفَضتهُ مَرَّاتٍ كَثـــيرَةً مِنْ قَبْلُ، وكَمْ شــعَرَتْ أنه يتمَنّــى إذلالَها رَدًّا عَلَى ما يَتصوَّرُ أنــه إذْلالٌ له برَفْضِها الزّواجَ منه ...

كانتْ تهْمِسُ لِنفْسِــها في مَرارَةٍ وغَيْظٍ : «لقد وجَدَ في هَذِهِ الإشاعَةِ تهْديدًا قَوِيًّا يُحاصِرُني ويَضغطُ بِهِ علَى والِدِي لِمَنعِي من مُواصَلَةِ تعْليمي وحَبْسي في الدَّار ..».

وتتنهَّدُ وتضيفُ :

«ها هِيَ ذي الأسْوارُ الَّتي جاهَدْتُ طَويلاً لِهَدْمِهَا ترْتفِعُ عالِيةً لِسَجْني داخِلَها في قَسْوَةٍ وبغيْرِ رَحْمَةٍ ! ».

لقد وجدَتْ رجاءُ الحَلَقاتِ تضيقُ مِنْ حَوْلِها ، ولا تدْرى كَيْفَ ستتطوَّرُ الأحْداثُ حَتّى تسْتطيعَ كَسْرَ تلك الحَـلَقاتِ وتحْطيمَها ! .

* * *

وأقْنعــوا «الحــاجَّ» بضــرورَة الانتِظار حَتّــى الصَّباحِ، «فالنّهارُ لَهُ عُيونٌ» كَما قالوا ..

لَكِنْ يَبْدو أنه قَرَّرَ البَقاءَ حَتَّى الصَّباحِ، لَيْسَ فقط لأجْلِ عُيونِ النَّهــار، بَلْ لأنهُ أصْبَحَ أقَلَّ ثِقَةً في أنَّ قَرارَ عَوْدَتِهِ لَيْلاً مــعَ ابنتِهِ يُمكِنُ أنْ يضعَ حَــلاً حاسِمًا لذلك المَوْقفِ الحَسَّــاسِ الخَطيرِ الذى وجَدَ نفسَـــهُ فيه هُــوَ وابنتهُ فى مُواجَهَةِ ابْنِ أخيه وأهْلِ قَرْيتِهِ !.

٨

وفى غُرْفَتِها باسْــتِراحَةِ الأسـاتِذةِ، جلسَتِ الدُّكْتــورَةُ هناء مُتَرَبِّعَةً علَى فِراشِــها، وفى مُواجَهتِها جلسَتْ رجاءُ ورَأسُها عَلَى ركبتيْها المَضمومَتيْنِ أمامَها..

كانتِ الدُّموعُ تنحَدِرُ فى هُدوءٍ علَى وَجْنتىْ رجاء، وهِىَ الَّتِى لَمْ يتعوَّدْ أحدٌ أن يرَى الدُّموعَ فى عينيْها.

كانتْ ترتسِمُ أمامَ خيالِها صورَةُ فكَّىْ كمَّاشةِ التَّقاليدِ مَعَ الإشاعَاتِ، تتضافَرُ لِتسُدَّ أمامَها الطَّريقَ الَّذِى تصوَّرَتْ أنَّ أقْدامَها قد ثبتَتْ علَيْهِ.

قالَتْ رجاءُ مِنْ بَيْنِ دُموعِهَا :



«حَتّــى إذا أقنعْتُ والِدِى بعَدَمِ عَوْدَتى فى صَباحِ الغدِ، فأنا أشْفِقُ عليْهِ مِنَ العَوْدَةِ وَحْدَهُ».

قالَتِ الدُّكْتورَةُ هناءُ : «والدُكِ يُحِبُّكِ رَغمَ كُلِّ شئٍ».

رفعَتْ رجاءُ رأسَــها وسـألَتْ فى عِتابٍ : «حَتّى أنتِ يا دُكْتورَةُ هناء تقولينَ : رَغْمَ كُلِّ شئٍ؟!

هل تظُنّــينَ أنَّ تلميذتكِ، بل ابنتكِ رجاء الَّتِى عَرَفْتِها عَلَى مَدى أرْبَعِ سَــنواتٍ، وكانَ ترْتيبُها دائِمًا الأولى عَلَى الدُّفْعَةِ، يُمكِنُ أن تفْعَلَ شيئًا يَجْلبُ لها اللَّوْمَ؟!».

لم تعْرِفِ الدُّكْتورَةُ هناءُ بماذَا تجيبُ، ولكنهَا إذا سألَتْ رجــاءَ عَنْ حَقيقَةِ ذهابِها إلى الأقْصُرِ، فَمَعْنى هَذا أنّها هِىَ أيضًا تشُكُّ فى سُلوكِها !..

وإذا كانتْ رجاءُ قد ذهبَتْ فِعْلاً، فالسُّــؤالُ عَنْ سَــبَبِ ذهابِها قَدْ يَحْمِلُ أيضًا مَعْنى التّشكُّكِ فى السُّلوكِ !

وهَكذَا اتّخذتِ الدُّكْتورَةُ هناءُ قرارًا : إذا لم تتحدَّثْ رجاءُ مِنْ تِلقاءِ نفْسِها عَنْ تِلْكَ الإشاعَةِ، فَهِىَ لَنْ تسْألَها ..

تساءلَتْ رَجاءُ فى ألَمٍ : «هَلْ يُمكِنُ أن تصِلَ الرَّغْبَةُ فى الكَيْدِ عِندَ ابْنِ العَمِّ إلى حَدِّ تلْويثِ سُمْعَةِ ابْنةِ عَمِّهِ ؟ ! ! ».

قالَــتِ الدُّكْتورَةُ هناءُ فى مُحاوَلَــةٍ لِتَشْــغَلَ ذِهْنَ رجاء بما يُمكِنُ أن يُخفِّفَ عنها الضُّغوطَ :

«سُلوكُ ابْنِ العَمِّ انعكاسٌ لِنوْعِ عَلاقَةِ عَمِّكِ بوالِدِكِ ! ».

فى أسَفٍ قالَتْ رَجاءُ : «الحَديثُ عَنّى باعْتِبارى مَأساةَ حَيــاةِ والِدِى كانَ هُوَ الأسْــلوبَ الَّذى طالَما لَجَأ إليه عَمِّى لِيَشْعُرَ أنهُ الأفْضلُ مِنْ والِدِى ! ».

قالَتِ الدُّكْتورَةُ فى دَهْشةٍ : «كَيْفَ اسْتَطاعَ أنْ يتجاهَلَ تفَوُّقَكِ ؟ ! أنتِ تبالِغينَ يا رَجاءُ ! ».

قالَــتْ رَجاءُ فى مَرارَةٍ : «بَــلْ هِىَ الحَقيقَةُ الَّتى بدأتْ وقائعُها مُنذُ مَوْلدى .. إنها أبْشعُ مِنْ أن أحْكِيَها .. عَمِّى هُوَ الأكْبَرُ سِنًّا مِنْ والِدِى، لَكِنَّهُ لا يَعْرِفُ القِراءةَ ولا الكِتابَةَ .. رفَضَ التّعليمَ بإصْرارٍ غَريبٍ بينمَا والِدِى من القَلائِلِ الذينَ يَحْرِصونَ عَلَى قِراءةِ صَحيفَةِ الأهْرامِ بانتِظامٍ .. يَقْصِدُهُ كُلُّ مَنْ لدَيْهِ مُشكِلَةٌ .. ».

ثمَّ تمهَّلَتْ قَبْلَ أنْ تضيفَ : «كَثيرًا ما شـعرْتُ أنَّ عَمِّى يَحْسدُ والِدِى لِما نتمتَّعُ به مِنِ احْترام وثِقَةٍ فى قَرْيَتِنا .. لم يَكُنْ يُطيقُ أنْ يسمعَ كَلِمَةَ ثناءٍ عَلَيْنا !».

قالَتِ الدُّكْتورَةُ هناءُ :

«لَكِنَّكِ تقولينَ إنَّ هَذا بَدأ مُنذُ مَوْلِدِكِ ؟».

قالَتْ رجاءُ :

«حَكَـتْ لى والِدَتِى، أنه عِندَ مَوْلِـدى قاطَعَ عَمِّى بَيْتنا كَأنَّمـا قد أصابَنا مَرَضٌ سَـريعُ العَـدْوَى .. وعِندَما عاتبَهُ والِـدِى أجابَـهُ عَمِّى فى خُشـونةٍ : «هَـلْ وِلادَةُ البَناتِ تسْتأهِلُ سُؤالاً أو زيارَةً ؟!».

وعِندَما قالَ الأطِبَّاءُ إنَّ والِدَتِى لَنْ تصبحَ قادرَةً على إنجابِ أطْفـالٍ آخرينَ، كانتْ تحِيَّـةُ عَمِّى الدَّائِمَةُ لِوالِدِى : «مَتَى تتزوَّجُ مِنْ أخرَى تنقِذُكَ من عارِ البَناتِ ؟!».

وكانَ والِـدِى حَريصًا علَـى عَدَم نقْلِ هَـذِهِ الإهانـاتِ الجارحَةِ إلى والِدَتِى، لَكِنَّ زَوْجَةَ عَمِّى، كُلَّما جاءتْ لزِيارَةِ والِدَتِى، تحْرِصُ أنْ تقولَ لها :



«لمـــاذا لا تشـــجِّعينَ زوْجَكِ علَى الاسْـتِماعِ إلى نصيحَةِ أخيهِ ؟! زوْجُكِ يَتمَنّى الولَدَ لَكِنَهُ حَريصٌ على مشاعِرِكِ.. دَعيهِ يَفْرَحُ مِثلَما نفْرَحُ كُـلُّنا بالذّكورِ من أوْلادنا !».

بَــلْ حَتّى مصطفى ابْنُ عَمِّي الّذِي يُطارِدُني الآنَ، كانَ كُـلَّما جاءَ لِزيارَتِنا أسْمَعُهُ يَســألُ والِدَتِي فِي إلْحاحٍ بإيعازٍ مِنْ أمِّهِ : «متى تأتينَ لي بوَلَدٍ ألعبُ معَهُ ؟!».

قالَــتِ الدُّكْتورَةُ هناءُ في مَــرارةٍ : «كَيْفَ تحَمَّلَ والِدكِ كُلَّ هذا ؟!».

قالَــتْ رجاءُ : «كانَ لوالِدِي مِنَ الحِكْمَةِ ما جعلَهُ قادرًا علَى عَدَمِ الاكْتِراثِ بما يَسْــمعُ.. أنا واثِقَةٌ أنه كانَ يُحِبُّ والِدَتِــي رَحِمَها اللهُ حُبًّا قَوِيًّا، مَــع أنَّهُ لمْ يُعْلِنْ ذلك أبَدًا أو يَتحدَّثْ عَنهُ.

لم يكُنْ يترُكُ مُناسَــبَةً مِثلَ الأعْيادِ أو العَوْدَةِ من الحَجِّ أو مِنْ سَــفَرٍ، إلاَّ وأحْضرَ معَهُ لهَــا أغْلَى الهَدايا، خاصَةً من الذّهَبِ الذِي كانــتْ وَالدتي تعْتزُّ به وتتفاخرُ كَثيرًا :

عَــدَدًا منَ الأسَــاور، أو عِقْدًا ثمينًا كأنه عَــددٌ من العُقودِ معًا، أو حُلِيَّةً ثقيلَةً لِلصَّدْر أو حَلَقًا كَبيرًا .. وعِندَما اختارَ اللهُ والِدَتِــى إلى جــوارِهِ، وأعْطانى والِدِى كُلَّ ما كانَ عِندَ والِدَتِى مِنْ ذهَبٍ، وجَدْتهُ شيْئًا كَثيرًا جدًّا ..».

واسْــتغرقَتْ رجاءُ لَحظاتٍ فى ذكْرياتِها، فلمْ تقاطِعْها الدُّكْتورَةُ هناءُ إلى أنْ عاودَتْ رَجاءُ «الفَضفَضةَ» : «قالَ والدى وهُوَ يُســلِّمُنِى كَنزَ والدتى : لسْتُ أعرِفُ تقلُّباتِ الدُّنْيا .. الأرْضُ سَــيَطْمَعونَ فيهــا، لَكِنْ لا تدَعِيهم يَعْرِفونَ شــيْئًا عَنْ هَذا الكَنــزِ .. احْرِصى عَلَيْهِ حَتّى تتزوَّجى ولا تُفرِّطى فيه مَهْمَــا حَدَثَ، حَتّى لو طلَبْتُهُ أنا مِنكِ .. هَذِهِ وَصِيَّتِى الوَحيدَةُ وأنا أسَلِّمُكِ أثمَنَ ما كانتْ تملكُهُ والدتكِ».

ثم تمهَّلَتْ رَجاءُ قَبْلَ أنْ تضيفَ : «لَسْــت أعتقِدُ أنَّنى ســأقابلُ رَجُلاً يَحْرِصُ عَلَــى رعايَةِ مَشــاعِرِ زَوْجَتِهِ مِثلِ والِــدِى .. كُلَّما ثــارَ نِقاشٌ أمامَهَا حَــوْلَ إنجابِ البَناتِ كانَ يَقولُ فى إيمــانٍ وثِقَةٍ : «هَذِهِ حِكْمَةُ اللّهِ، وهُناكَ مِنَ الرِّجالِ مَنْ تزوَّجَ بأرْبَعٍ ولم يَمْنَحْهُ اللّهُ إلا البناتِ !».

ثم يُشيرُ نحْوِى ويَقولُ : «وسَتكونُ هذِهِ البنتُ خيْرًا مِنْ عَشرَةِ رجالٍ ! ».

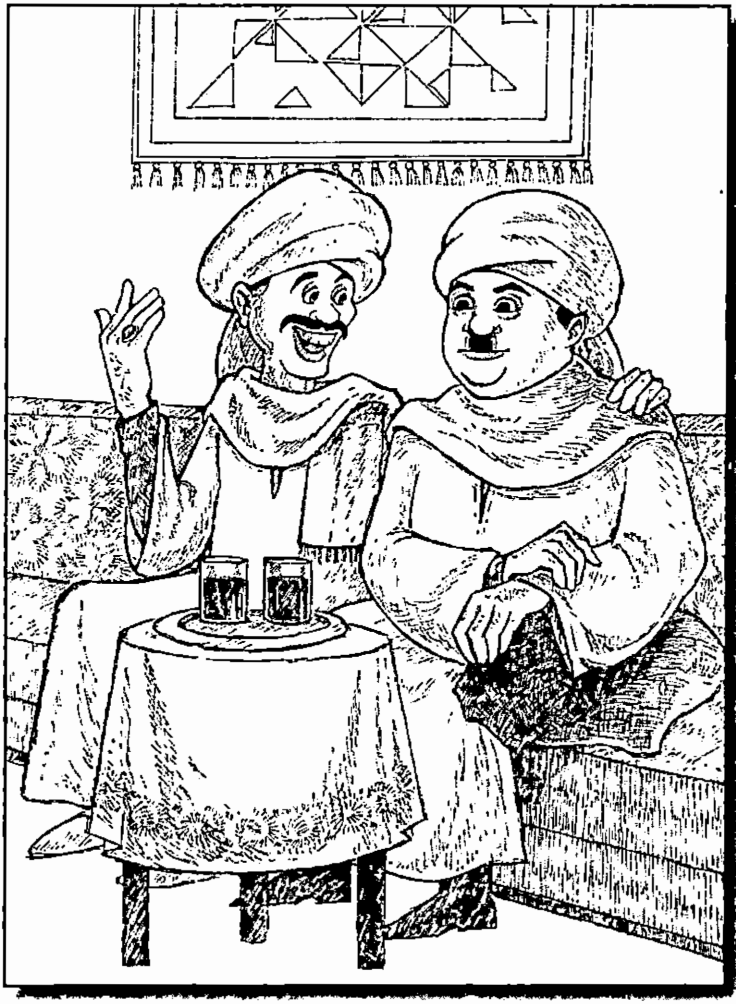
أمَّــا والدتى فكانــتْ لا تمَلُّ من أنْ تحْكِىَ لى أخْبارَ مَنْ أوْصَلَهُنَّ التّعليمُ ليُصْبحْنَ طَبيباتٍ ومُدَرِّساتٍ ومُهَندِساتٍ.. كانتْ تكرِّرُ مَرَّةً بَعْدَ أخرَى :

«التّعليمُ هُوَ طريقُكِ لِتحْقيقِ حُلْمِ والِدِكِ ؛ لِتصْبحى خيْرًا مِنْ عَشرَةِ رجالٍ ! ! ».

قالَتِ الدُّكْتورَةُ : «مِنَ الغريبِ أنه مَعَ كُلِّ هَذِهِ المَشــاعِرِ المُسْــتفِزَةِ غَــيرِ الطَّيِّبةِ مِنْ عَمِّكِ ، يتمسَّــك ابنــهُ بالزَّواجِ مِنكِ ! ».

قالَتْ رجاءُ :

«بل كانتْ هَذِهِ وَسـيلتهم الأخيرةَ لِلقَضاءِ على أحْلامِى وأحْلامِ أبِى. كانوا يُتابعونَ - بكَثيرٍ مِنَ الغيرَةِ والحَسَـدِ - مــا أفوزُ به مِنْ إعْجابِ أهلِ البَلَدِ بتَفَوُّقى فى دِراسَـتِى ؛ وفَوْزى بكَثيرٍ من الجَوائِزِ فى المُسابَقاتِ وتكْريمى مَرَّةً بَعْدَ أخــرَى. ثمَّ اكْتشــفَ عَمِّى أنَّ أنجَحَ وَســيلَةٍ لِلقَضاءِ عَلَى



أحْلامِنَـا أن يطلُبَ ابْنُ عَمِّى الـزّواجَ مِنِّى ؛ لأصْبحَ جاريَةً فى بَيْتِهِ لا أمْلِكُ مِنْ أمْرِ مُسْتقْبَلِى وطُموحِى شيْئًا !».

وصَمتتْ تتابعُ أفْكارَها المُتصَارعَةَ قائِلَةً فى اسْتِنكار :

«كَيْـفَ أتزوَّجُ شـخْصًا لا يَعْرِفُ أنْ يكتُبَ شـيْئًا غَيْرَ اسْمِهِ ، ولا يُجيدُ إلا الكَيْدَ لى ولِوَالِدِى ؟!».

ثـم صوَّبَتْ نظَرَها نحْوَ الدُّكْتـورَةِ هناء وأضافَتْ : «هَلْ تعْرِفينَ آخِرَ ما فَعَلوا ؟!».

تسـاءلَتِ الدُّكْتورَةُ هناءُ مُسْتنكِرَةً : «هَلْ ترَكُوا بَعْدَ هَذا شيْئًا لم يَفْعَلوهُ ؟!».

قالَـتْ رَجاءُ : «عِندَما وَجَدَ عَمِّـى أنهُ مِنَ المُحْتَمَلِ أنْ أظَلَّ مُتمَسِّـكَةً حَتّـى النِّهايَةِ بعَدَمِ الزّواجِ مِـنِ ابْنِهِ ، بدأ يُلِـحُّ على والِدِى قائِلاً : أرضُ الأسْـرَةِ لا يَجبُ أنْ تخرُجَ مِـنْ بَيْنِ أيدِى رجالِهَا .. يَجِـبُ أن تبيعَ لى أرضكَ حَتّى لا تبدِّدَها ابنتكَ مِنْ بَعْدِكَ.

ثمَّ حرّضَ بَعْضَ كِبارِ أهْلِ البَلَدِ ليُشـاركُوه هَذا الإلْحاحَ قائلينَ لِوالِدِى : «ابنتكَ سـتنجَحُ فـى حَياتِها بَعيدًا عَنِ

القَرْيَةِ .. اترُكَ الأرْضَ لأخيكَ وأوْلادِهِ».

وظَــلَّ والِدِى يُقاوِمُ إلى أنْ حدَثَ فــى العام المَاضِى أنْ أصابَتِ الدُّودَةُ حُقولَهُ الَّتى زرعَها بالقُطْنِ، وكانتِ الخَسارةُ فادِحَةً فتراكَمَتْ علَيْهِ الدُّيونُ، وهُوَ الآنَ لا يَسْتطيعُ سَدادَ ثمَنِ جَرَّارٍ كانَ قَدِ اشــتراهُ وأصْبَــحَ مُعَرَّضًا لِتوْقيعِ الحَجْزِ عليه وعلَى الأرْضِ. وانتهزَ عَمِّــى الفُرْصَةَ فعَاوَدَ الإلْحاحَ لِيَشترِىَ أرْضنا، لَكِنَّهُ لا يَعْرِضُ إلاَّ ما يُساوِى نِصْفَ ثمَنِها قائِــلاً: «ما حاجَــةُ ابْنتِــكَ إلى الأرضِ؟!» وكأنَّ الأرْضَ ليسَتْ ســببَ فَخْرِ والِدِى هُوَ نفسهُ، أو كأنَّ حَياةَ والِدِى فى القَرْيَةِ ستنتهِى اليَوْمَ قَبْلَ الغدِ.

وها أنتِ ترَيْنَ كَيْفَ يَسْتغِلُّونَ بَعْضَ الأقاويلِ فى تضييقِ الخِناقِ حَوْلِى لِلقَضاءِ عَلَى مُســتقْبَلِى، بعدَ أن اسْتحْكَمَتْ حَلَقاتُهم فِعْلاً حَوْلَ أرْضِ أبى لِلقَضاءِ عليه هُوَ أيضًا!!».

٩

وأمــامَ عينِى الدُّكْتورَةِ هناء، ظهــرَتِ الصُّورَةُ كأنَّمَا قد

اختفَى مِنها كُلُّ ضوْءٍ يُوحِى بالأَمَلِ !..

لَكِنَّها لمْ تشأْ أنْ تترُكَ رجاء والإحْباطَ يُحيطُ بها ..

فَعِندَما أشارَتْ عقاربُ السَّاعَةِ إلى أنهَا أصبحَتِ العاشِرَةَ مَساءً، ووقفَتْ رَجاءُ مُتأهِّبَةً لِلعَودَةِ إلى غرْفَتِها فى بَيْتِ الطَّالِباتِ، حَزينةً تشعُرُ بالهَزيمَةِ تقْتربُ منها، أمسكَتِ الدُّكْتورَةُ بكَفَّىْ رجاء لِتقولَ لها مُشجِّعَةً :

«كُلُّ هذَا سيتغيَّرُ يَوْمًا وبأسْرَعَ مِمَّا تتصوَّرينَ .. أنتِ تعرفينَ أنَّ والِدِى كانَ مُسْتشارًا فى القَضاءِ، ومُنذُ أرْبَعِينَ عامًا فَقَطْ، فى بدايَةِ عَمَلِهِ بالقَضاءِ، قضى فَترَةً قاضِيًا بمَحْكَمَةِ قنا .. لم تكُنْ فى قنا أيَّةُ كُلِّيَّاتٍ ولا جامِعَاتٍ أو مَعاهِدَ عُليا .. يَقولُ إنه فى تِلْكَ الفَترَةِ عامَ ١٩٥٣، لم يُشاهِدْ أيَّةَ فَتاةٍ أو سَيِّدَةٍ تسيرُ فى شوارِعِ المَدينةِ.

وكانَ يَقُومُ بالفَصْلِ فى قَضايا مُتعَدِّدَةٍ تتنازَلُ فيها السَّيِّداتُ عن مِيراثِهِنَّ لإخْوَتِهِنَّ الذُّكور، وهِىَ فى حَقيقَتِها قَضايا صوريَّةٌ هَدَفُها حِرْمانُ الأنثى من المِيراثِ الَّذى قَرَّرَتهُ لها آياتُ القُرْآنِ الكَريمِ.



كانتِ السَّيِّدَةُ تحضرُ أمامَهُ فى المَحْكَمةِ، لا يظهرُ منها شىْءٌ يُميِّزُ معالمَ شخْصِيَّتِها ..».

وأضافَتِ الدُّكْتورَةُ هَناءُ :

«والآنَ ها أنتِ ترَيْنَ شـوارِعَ قنـا ومَحلاَّتِ البَيْعِ فيها مُزْدَحِمَةً بالفَتياتِ والسَّيِّداتِ .. وأجدُ أمامى فى كُلِّ مُدَرَّجٍ مِنْ مُدرَّجاتِ الجامِعَةِ، أرْبَعَمائةٍ أو خمْسَمائةٍ مِنَ الطَّالِباتِ قادِماتٍ مِنْ تِلْكَ القُرَى الَّتى كانتْ تخْفِى نِساءها، واللَّاتى لَمْ يَكُنْ مَسْـموحًا لَهُنَّ بالخُروجِ مِنْ أبْوابِ البُيوتِ إلا إلى بَيْتِ الزَّوْجِ أو إلَى القَبْرِ ! .. كُلُّ هَذا حَدثَ فى أرْبَعينَ سنةً فقَطْ .. ثِقِى يا رَجاءُ أن التغيُّر قادِمٌ وبسُـرْعَةٍ، ولن يَتوقَّفَ أمامَ مَنْ يُحاولونَ تعْطيلَهُ ! ».

ورفعَتْ رجاءُ عينيْهـا إلَى وَجْهِ الدُّكْتورَةِ هَناءَ، تحاولُ أن تسْـتوعِبَ كيفَ يُمْكِنُ أنْ يحدثَ هَذا التَّغييرُ وكُلُّ هَذِهِ القُيودِ تحيطُ بها !.

وكانَ لابُدَّ أن تذهَـب الدُّكْتورَةُ هناءُ معَ رجاء إلَى بَيْتِ الطَّالِبَاتِ، لِتُثبتَ أنها كانتْ فى صُحْبَتِها إلى تِلْكَ السَّاعَةِ

من اللَّيْلِ.

بَلْ واصَلْنا الحَديثَ حَتّى دخلَتِ الدُّكْتورَةُ هناءُ مَعَ رجاء إلَى غُرْفَتِها، حَيْثُ شاركَتهُما شيْماءُ فى حِوار هامٍّ، انصرفَتْ بعدَهُ الدُّكْتورَةُ هناء وكُلُّ واحِدَةٍ تسْألُ نفْسَها فى إلْحاحٍ: «ما الَّذى يَنتظِرُنا فى الصَّباحِ مِنْ مُفاجَآتٍ يَبْدُو أنه لاً قُدْرَةَ لَنا على مُواجَهتِها؟!!».

١٠

لم تكُنِ السَّاعَةُ قد بلغتْ بَعْدُ السَّابعَةَ والنِّصْفَ صَباحًا، عِندَما فوجِئَ رَجُلُ الأمْنِ الجالِس داخِل غُرْفَتِهِ الصَّغيرَةِ بجوار بابِ السُّور المُحيطِ ببَيْتِ الطَّالِباتِ مَعَ مَبانى كُلِّيَّةِ التَّربيةِ بجامِعَةِ قنا، بشابٍّ فى حوالِى الخامِسَةِ والعِشرينَ مِنْ عُمْرِهِ يَرْتَدِى مَلابسَ أهْلِ الرَّيفِ، يَطْرقُ زُجاجَ نافِذَةِ غُرْفَتِهِ بقُوَّةٍ..

رَفعَ رجُلُ الأمْنِ رأسَهُ مُسْتطْلِعًا..

أعادَ الشابُّ الطَّرْقَ بعُنفٍ مُسْتفِزٍّ وهُوَ يَصيحُ: «أريدُ أنْ أدْخلَ!».

صاحَ رَجُلُ الأمْنِ غاضِبًا : «توقَّفْ عَنْ هَذا الطَّرْقِ .. إلى أيْنَ تريدُ الدُّخولَ؟».

عاوَدَ الشابُّ الصِّياحَ فى لَهْجَةٍ حافِلَةٍ بالخُشونَةِ :

«يَجِبُ أن أقابلَ ابْنَةَ عَمّى فَوْرًا ..!».

لم يَهْتزّ رجُلُ الأمْنِ أمامَ هَذا الغُرور الذِى وَصَلَ إلى دَرَجَةِ الحُمْقِ، بَلْ قالَ فى صَرامَةٍ بهَا شَيْءٌ منَ الاسْتِخفافِ :

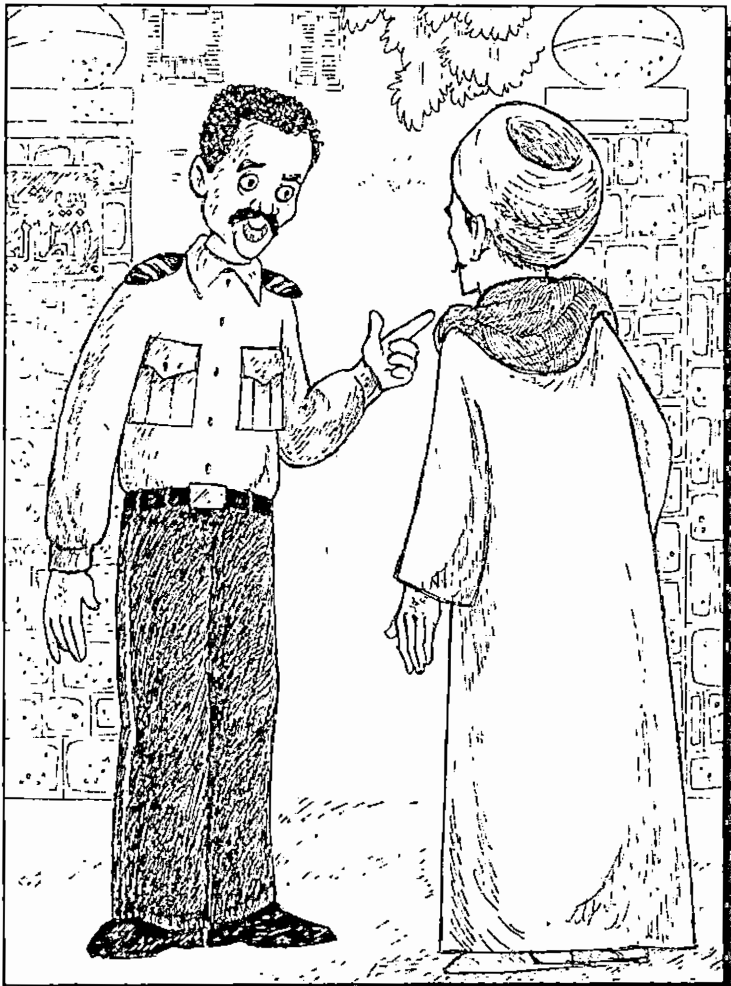
«هَذا بَيْتُ طالِباتٍ .. مَمْنوعٌ الدُّخولُ !».

قالَ الشّـــابُّ وقد اشــتَدَّ انفِعالُهُ : «أنا مصطفىَ ابْنُ عَمِّ الطَّالِبَةِ رجَاء عبد المنعم بالسَّنةِ النّهائِيَّةِ بكُلِّـيَّةِ التربيةِ .. لابُدَّ أن أقابِلَها لأمْرٍ مُهِمٍّ ..».

فى حَسْمٍ قالَ رَجُلُ الأمْنِ : «غَيْرُ مَسْموحٍ إلاَّ بدُخولِ الأبِ أَو الأخِ أَوِ الزّوْجِ .. هلْ معَكَ ما يُثبتُ شَخْصِيَّتكَ؟».

عــاوَدَ مصطفىَ صِياحَـــهُ وهُوَ يُحـــاوِلُ أن يُضفِيَ عَلَــى لَهْجَتِهِ نوْعًا من التّعبيرِ عَنِ القَلَقِ :

«والِدُهـــا جاءَ يأخذُها بالأمْسِ، لَكِنّــهُ لَمْ يَرْجعْ حَتّى الآنَ إلى بَيْتِهِ ..».



ووَجَّهَ رَجُلُ الأمْنِ بَصَرَهُ إلى التّليفونِ فَوْقَ مَكْتبهِ وأجابَ فى غَيْرِ اهْتِمام :

«انتظِرْ حَتّى أتّصِلَ بمُديرَةِ البَيْتِ».

١١

لم تكُنْ «أبلة ابتهاج» تتوقَّعُ أن تبدأ مَشاكِلُ اليَوْمِ الجَديدِ مُبكِّرًا هَكذَا، فقد اعتادَتْ أن تكونَ فى مَكْتبها قَبْلَ السَّابعَةِ لِتشرِفَ عَلَى إعْدادِ إفْطارِالطَّالِباتِ، أو لِتواجهَ ما يَكونُ قد وقَعَ منْ مُشكِلاتٍ أثناءَ اللَّيْلِ مِثلِ المَرَضِ المُفاجِئِ الَّذى قد يُصيبُ إحْدَى الطَّالِباتِ.

أمَّا اسْـتِقْبالُ الأقاربِ الغاضِبينَ فَهَذا شــىْءٌ غَيْرُ مُعْتادٍ مَعَ أوَّلِ ساعاتِ العَمَلِ !.

وعِندَما فَهِمَتِ الأمْرَ مِنْ رَجُلِ الأمْنِ قالَتْ بسُرْعَــةٍ وفى حَسْم :

«قُلْ له إنّنى قابَلْتُ والِدَ الطَّالِبَةِ أمْسِ، وعَرفْتُ منهُ أنهُ سيَبيتُ فى قنَا».

وعِندَمــا نقلَ رَجُــلُ الأمْنِ هَذِهِ الرِّســالَةَ إلى مصطفىَ، صمَــتَ لَحْظَةً، ثمَّ اندَفَعَ يُعاودُ الصِّيــاحَ مِنْ جَديدٍ كأنّما تصوَّرَ أنَّ صِياحَهُ قادرٌ أنْ يَفْتحَ له الأبْوابَ:

«لَكِنْ يَجبُ أن أرَى ابْنــةَ عَمّى.. كَيْفَ تمْنعوننِى مِنْ مُقابَلَةِ قَريبَتِى؟!».

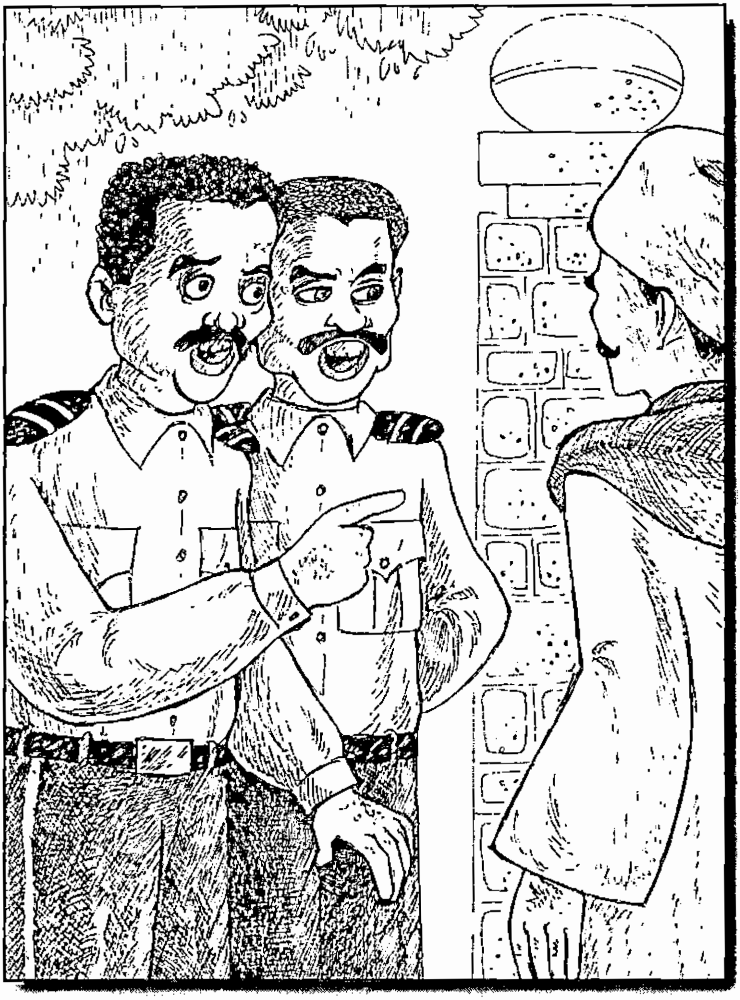
مِنَ الوَاضِحِ أنه كانَ مُصمِّمًا علَى تنفيذِ ما أقْسَمَ عَلَيْهِ مِنْ أنه سَيُعيدُها بنفْسِهِ صَباحًا إلَى القَرْيَةِ!!

فى تِلْكَ اللَّحْظَةِ وصلَ زَميلٌ لِرَجُلِ الأمْنِ، فانتابَهُ غَضبٌ شــديدٌ عِندَما سَمِعَ ذلكَ الذِى يَصيــحُ أمامَ مَكْتبِ الأمْنِ، وشاهَدَ بَعْضَ المارَّةِ يتوقَّفُونَ حَوْلَهُ يَسْتطْلِعونَ الأمْرَ.

ولَمْ يَكُنْ رَجُـلُ الأمْنِ الثانى فى مِثْلِ هُدوءِ زَميلِهِ فانفَجَرَ مُهدِّدًا:

«إذا لَمْ تكفَّ فَوْرًا عَنْ هَذا الصِّياحِ وتنصَرِف بغيْرِ تردُّدٍ، سَأسْتدْعِى الشّرْطَةَ لِتعَلِّمَكَ كَيْفَ تتكَلَّمُ بأدَبٍ!».

وكانَ مصطفىَ فى حاجَــةٍ إلى هَذا التّهْديدِ الغليظِ لِكَىْ يَسْــتعيدَ وَعْيَهُ ويُدْرِكَ أنه يُواجهُ «السُّــلْطَةَ» بكُلِّ ثِقَلِها،



فكَــفَّ فَــوْرًا عَنْ صِياحِهِ وتوقَّــفَ غَيْرَ واثِقٍ مِــنْ خطْوَتِهِ التَّالِيَةِ.

قالَ فى صَوْتٍ حاوَلَ أن يَجْعَلَهُ أهدَأ :

«إذنْ سَأظَلُّ فى مَكانى هُنا لَنْ أتزحْزحَ ..».

قالَ رَجُلُ الأمْنِ الثَّانى فِى نفْسِ الغِلْظَةِ :

«بَــلْ يَجبُ أنْ تتَزَحْــزحَ بَعيدًا عَنْ طَريــقِ الدَّاخِلاتِ والخارجَاتِ ! ».

وبدأتِ الطَّالباتُ القادِماتُ مِنْ مَدينَةِ قنا - نفْسِــها - يَتوافَــدْنَ عَلَى البابِ، وقَدِ اشــتدَّ تزاحُمُهنَّ ورجالُ الأمْنِ يَفْحَصونَ بطاقاتِهِنَّ الجامِعِيَّةَ قَبْلَ السَّماحِ لهُنَّ بالدُّخولِ.

كانتِ الطَّالباتُ يَتطَلَّعْنَ فى دَهْشَــةٍ واسْــتِنكار إلى هَذا الواقِــفِ عَنْ قُرْبٍ يَتصفَّــحُ وُجوهَهُنَّ، فاضطُرَّ مصطفى أن يَتباعَدَ أكْثرَ فأكْثرَ عَنِ البابِ.

ثــمَّ رأَى أنْ يتّخِذَ له مَقْعَدًا عَلَــى «مَقْهى» فِى النَّاحِيَةِ الأخْــرَى منَ المَيْــدانِ يُراقِبُ مِنها بــابَ الدُّخولِ، إلى أنْ يَعْرِفَ طَريقَهُ إلى الخُطْوَةِ التَّالِيَةِ.

ولم يَحْسِبْ حِسابَ حَرَكَةِ المُرور الَّتى بدأتْ تتكاثرُ فى المَيْدانِ مَعَ اقْتِرابِ السَّــاعَةِ الثَّامِنــةِ، فحَجبَتْ عنه رُؤيةَ الدَّاخِلــَين والخارجــَين مِنَ البابِ، لهــذَا لَمْ يَتنبَّهْ إلَى أنَّ الحــاجَّ عَبْدَ المُنعِمِ كانَ مِــنْ بَيْنِ مَنْ سَمَحَ لَهُمْ رجالُ الأمْنِ بالدُّخولِ.

لَكِنَّ سَيَّارَةً سَــوداءَ فاخِرَةً جذبَتِ انتِباهَهُ وهِىَ تتوقَّفُ أمامَ البابِ، مَكْتوبٌ عَلَيْها بوُضوحٍ «البنكُ التِّجارىُّ المِصْرىُّ – فَرْعُ الأقْصُرِ»، غادَرَها رَجُلٌ أنيقٌ يضعُ علَى عينيْهِ نظَّارَةً سَوْداءَ لَها إطارٌ ذهبىٌّ ثمينٌ.

لمْ يكُــنْ مصطفىَ يَعْرِفُ أنَّ ذلكَ هُوَ الأســتاذُ مُحْسِــن شــعْلان، مُديرُ ذلِكَ البَنكِ، ووالِدُ شــيْماء زميلَةِ ابْنِةِ عَمِّهِ رجاء وصَديقَتِها المُقرَّبَةِ.

١٢

وفِى غُرْفَتِها المُتَسِعَةِ، ولِلمَرَّةِ الثانِيَةِ فى يومَيْنِ مُتتالِيَيْنِ، اسْتقبلَتْ «أبلة ابتهاج» الحاجَّ عَبْدَ المنعِمِ.

قالَــتْ فى ترْحيبٍ : «أرْجُو أن يكــونَ اليَوْمُ أفْضلَ مِنَ الأمْسِ ..».

نظــرَ إليها الرَّجُلُ فى عَدَمِ فَهْــم، لَكِنهُ فَضّلَ أنْ يكتمَ العبارَةَ التى كادَتْ تفْلِتُ منه، فلم يقُلْ: «وما الَّذِى يَجْعلُهُ أفْضلَ ؟..» بَلْ قالَ : «كُلُّهُ بأمْرِ اللهِ ..».

قالَتْ : «تفضَّلِ اسْترحْ حَتّى أسْتدْعِىَ رَجاءَ».

لَكِنَّ الَّتى جاءتْ بَعْدَ قَليلٍ كانتِ «الدُّكْتورة هَناءَ».

تطلَّعَ إليها الحاجُّ فى دَهْشةٍ ..

قالَتِ الدُّكْتورَةُ هَناءُ : «لا تقْلَقْ .. نحْنُ ننتظِرُ ضيْفًا».

تســاءلَ فى حيرَةٍ : «هَلْ يُعطِّلُكُمْ حُضُورى عَنِ اسْتِقْبالِ ضُيوفٍ ؟! سآخُذُ رَجاءَ وننصَرِفُ فَوْرًا».

فاجَأتهُ ابْتِهاجُ قائِلَةً : «ابْنُ أخيكَ جاءَ يَسْألُ عَنكَ مُنذُ الفَجْرِ !».

ازْدَحَمَ وَجْهُ الأبِ بانفِعالاتِ الغضبِ : «هَلِ اســتطاعَ الدُّخولَ هُنا ؟!».



أجابَتِ ابْتِهاجُ وظِلُّ ابْتِسامَةٍ عَلَى وَجْهِها : «لَمْ يَسْمَحوا له بتخطِّى بابِ السُّور الخارجىِّ ..».

قالَ الأبُ وقَدْ شحَبَ لَوْنهُ وتزايَدَ انْفِعالُهُ : «لَعلَّهُ إذنْ يَنتظِرُ فى المَيْدانِ .. الحَمْدُ لِلّهِ أنّنِى لم أرَهُ ..».

قالَتِ ابْتِهاجُ :

«كانَ مُصِرًّا عَلَى مُقابَلَةِ رجاء !».

صاحَ الأبُ :

«مـا لَـهُ وما لَها ؟! ليسَـتْ له علَيْها أيَّـةُ حُقوقٍ !.. لا تسْمَحوا له بمُضايَقَتِها».

تدخَّلَتِ الدُّكْتورَةُ هناءُ :

«لَكِنَّكَ تقولُ إنَّكَ جئتَ لِتأخُذها !».

ارْتبكَ الأبُ ولم يُجبْ ..

قالَتِ الدُّكْتورَةُ هناءُ وقد لاحظَتْ تردُّدَهُ فاسْتنتجَتْ أنه لَمْ يَحْسِمْ أمْرَهُ بَعْدُ :

«إذا كانتْ عَوْدَةُ رجاء إلى الشَّريفِيَّةِ قد تأجَّلَتِ اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ بطُولِها ، فإنها يُمكِنُ أن تنتظِرَ بضعَةَ أيَّامٍ أخرى ..».

انتفَضَ الأبُ واقِفًا : «أنتُم لا تقدَّرونَ حَرَجَ مَوْقِفى !».
قالَتِ الدُّكْتورَةُ ابْتِهاجُ فى مُحاوَلَةٍ لِتهْدِئتِهِ :
«فى التَأنّى السَّلامَةُ ..».

١٣

فى تِلْكَ اللَّحْظَةِ ارْتفعَ رَنينُ جَرَسِ التّليفونِ، فرفعَتْ «أبلة ابْتِهاجُ» السماعةَ ..

قالَتْ لِرَجُلِ الأمْنِ فى ارْتِياح : «تقُولُ إنّهُ والِدُ شيْماء ؟!.. أهْلاً وسَهْلاً .. إنه مِنْ أهَمِّ الشخصِيَّاتِ فى الأقْصُرِ .. لِيتفَضّلْ».

وبعدَ أنْ أعادَتْ سَمَّاعَةَ التّليفونِ إلى مَكانِهَا، ضغطَتْ عَلَى زرِّ جَرَسٍ صَغيرٍ بجوارِها، فظهرَتْ إحدى العامِلاتِ عِندَ بابِ الغُرْفَةِ .. قالَتْ لَها فى حَماسٍ :

«اذهَبى إلى غُرْفَةِ رجاءَ عَبْدِ المُنعِمِ .. إنها تنتظِرُ هُناكَ .. قُولى لهَا إنَّ والِدَها وصَلَ ..».

بَعْـدَ لَحَظـاتٍ دَخلَ الغُرْفَـةَ رَجُلٌ أنيـقٌ فى حوالَىِ الخامِسَـةِ والأرْبَعينَ، يَحْمِـلُ حَقيبَةً مِمَّـا اعْتادَ رجالُ الأعْمالِ حَمْلَها، يَضعُ علَى عينيْهِ نظَّارَةً سَوْداءَ لها إطارٌ ذهَبىٌ ثمينٌ.

وقَـفَ كُلُّ مَـنْ بالغرْفَـةِ لِتحِيَّتِهِ، بَيْنمـا توقَّفَ هُوَ - حائِرًا - لا يَعْرِفُ بمَنْ يَبْدَأ التّحِيَّةَ، فلم يَسْبقْ له أنْ قابَلَ أحدًا مِنْهُمْ.

تقدَّمَـتْ «أبلة ابْتِهاجُ» ناحِيَته مُتسـائِلَةً : «الأسْـتاذُ محسن شعلان، والِدُ شيْماءَ ؟».

أجابَ بابْتِسامَةٍ وَقورَةٍ :

«وسِيادَتكِ «أبلة ابْتِهاجُ» مُديرَةُ بَيْتِ الطَّالِباتِ ؟».

أجابَتِ ابْتِهاجُ فى ترْحيبٍ :

«يُسْعدُنا تشريفُكَ».

ثم أشـارَتْ إلى هَناء قائِلَةً : «الدُّكْتورَةُ هَناءُ إسماعيل .. الأسْتاذةُ بالكُلِّيَّةِ».



صافَحَها وهُوَ يَقولُ فى حَرارَةٍ :

«حدَّثتنِى ابْنتى شيْماءُ عَنكِ بكَثيرٍ مِنَ الخَيْرِ.. مِنَ الواضِحِ أنّكِ تُحِّبينَ كَثيرًا بَناتِكِ الطّالباتِ ! ».

قالَتْ هَناءُ فى ودٍّ وقَدْ سَرَى إليهَا شُعورُ الارْتياحِ الّذى سَبَقَ أنْ شعرَتْ به أبلة ابْتِهاجُ : «كُلُّهُنَّ بَناتى كَما تقولُ سيادَتكَ».

ولاحظَتِ ابتهاجُ أَنَّ الحاجَّ عبدَ المُنعِمِ يَتبادَلُ النّظراتِ المُتسائِلَةَ مع الأستاذِ محسن، فأسرعَتْ تقدِّمُ الحاجَّ إلى الأسْتاذِ محسن : «الحاجُّ عَبْدُ المُنعِمِ.. مِنْ أعْيانِ الشّريفِيَّةِ».

وبسُرْعَةٍ أضافَتِ الدُّكْتورَةُ هناءُ : «والِدُ رجاء صَديقَةِ ابْنتِكَ شيماءَ».

هنا ظَهرَ الاهْتِمامُ واضِحًا فى نظَراتِ الأسْتاذِ محسن.. لَقَدِ اكْتشفَ أنه يَعْرِفُ كُلَّ مَنْ بالغرْفَةِ مَعْرِفَةً وثيقَةً قَبْلَ أنْ يَراهُم.

وكَمْ كانتْ دَهْشــةُ الحاجِّ عَبْدِ المُنعِمِ أنْ يسمَعَ الأسْتــاذَ محســن يُبــادرُهُ قائِــلاً :

«بَعْــدَ أنْ عرفْتُ ابنتكُمْ رجــاءُ جَيِّدًا، أتمَنّى لَوْ أنَّ كُلَّ بَناتِنــا فى مِثــلِ حِكْمَتِهــا ورَجاحَةِ عَقْلِها يا حــاجُّ عَبْدَ المُنعِم ..».

ولَم يتمالَــكِ الحاجُّ عَبْدُ المُنعِمِ إلا أنْ يَقولَ : «سِــيادَتكَ تعْرِفُ ابْنتِى رَجاءَ ؟!».

قالَ محسن وقَدِ اتّسَعَتِ ابْتسامَتهُ :

«إنها أقْرَبُ الصَّديقاتِ إلى ابْنتِى شيْماء».

فى هَــذِهِ اللَّحْظَةِ سَمِعُوا طَرقاتٍ مُــتردِّدَةً عَلَى البابِ، فقالَتْ «أبلة ابْتِهاجُ» بصَوْتٍ يَسْــمَعُهُ الطَّارقُ : «تفضّل .. ادْخلْ ..».

ودخلَتْ شيْماءُ وبصُحْبَتِها رَجاءُ ..

١٤

اندفعَتْ شــيْماءُ ناحِيَةَ والِدِها الأســتاذِ محسن وهتفَتْ

في سَعادَةٍ :

«جئتَ في المَوْعِدِ كما وَعَدْتَ يا والِدِى ! ! ».

أمَّا رَجاءُ فقالَتْ في تحفُّظٍ وهِىَ تتجوّلُ بعينيْها تتصَفَّحُ وُجوهَ الحاضرينَ : «السَّلامُ علَيْكُم».

في تِلْــكَ اللَّحْظــةِ ارْتفعَ رَنــينُ جَرَسِ التّليفــونِ مَرَّةً أخرَى ..

وأصْغتِ ابْتِهاجُ إلى مُكالَمةٍ جَديدَةٍ مِنْ رَجُلِ الأمْنِ قالَتْ لَهُ بَعْدَها : «انتظِرْنى قَليلاً ..».

ثم واجهَتِ الحاجَّ مُتسائِلَةً :

«إنه مُصطفى ابْنُ أخيكَ يا حاجُّ عَبْدَ المُنعِمِ .. هل نسْمَحُ له بالحُضور إلى هُنا ؟».

اندفَعَ الحاجُّ يَقولُ مُحْتدًّا : «جاءَ يُثيرُ المَشاكِلَ ! .. مِنَ الأفْضلِ ألاَّ أراهُ ! ».

هنــا حَوّلَتْ «أبلة ابْتِهاجُ» بَصرِها ناحِيَةَ الدُّكْتورَةِ هناءَ مُتسائِلَةً تطْلُبُ مُساعَدَتها.



اقتربَتْ هناءُ من الحاجِّ وهِيَ تقولُ فى رفْقٍ :

«بَعْدَ اسْتِئذانِكَ يا حاجُّ .. أعْتقِدُ أنه جاءَ الوَقتُ لنسْمَحَ له بالحُضور ..».

لم يفهَمِ الحاجُّ ما الَّذى تقْصِدُهُ مِنْ عِبارَتِها، فقالَ مُحْتجًّا : «لَكِنْ ..».

هُنا رأتْ رَجاءُ أنه يَجبُ أن تتدخّلَ لأوَّلِ مَرَّةٍ فى الحَديثِ، فقالَتْ :

«يَجبُ أن يكونَ مَعَنا .. بَلْ هُوَ أوَّلُ مَنْ يَجبُ أن يكونَ بَيْننا ..».

* * *

بعدَ لَحظاتٍ ظهرَ رَجُلُ الأمْنِ عِندَ بابِ الغرْفَةِ، ودخلَ قَبْلَ أن يَسْمَحَ لمصطفى بالدُّخولِ. قالَ : «هلْ تحْتاجينَ إلى وُجودى يا أسْتاذةُ ابْتِهاجُ ؟».

لم تجبْ «أبلة ابْتِهاجُ»، بَلْ كانتْ رَجاءُ هِيَ الَّتى أسرعَتْ تجيبُ :

«إنه ابْنُ عَمّى .. كُلُّنا هُنا عائِلَةٌ واحِدَةٌ».

وأفْسَحَ رَجُلُ الأمْنِ الطَّريقَ، فظهَرَ مصطفى مِنْ فتحَةِ البابِ.

وتقدَّمَ مصطفىَ خطْوَةً واحِدَةً داخِلَ الغُرْفَةِ، ثمَّ توقَّفَ عِندَما فوجِئَ بكُلِّ هذا الحَشدِ فى اسْتِقبالِهِ !..

قالَتْ «أبلة ابْتِهاجُ» لِرَجُلِ الأمْنِ وَهِىَ غَيْرُ واثِقَةٍ مِنْ سَلامَةِ قَرارها :

«شكْرًا لكَ يا كابْتِنِ كَريم .. نحْنُ فى جلْسَةٍ خاصَّةٍ ..».

وانسحَبَ رَجُلُ الأمْنِ وهُوَ يَهْمِسُ لِنفْسِهِ :

«أرجُو ألا يُسْرِعوا باسْتِدْعائى بَعْدَ قَليلٍ ! !».

١٥

بغيْرِ مُقدّماتٍ كانتْ رَجاءُ هِىَ الّتى سَمِعُوا صَوْتها تسألُ ابْنَ عَمّها فى صَوْتٍ باردٍ حاسِمٍ :

«هل وَصَفُوا لكَ يا ابْنَ عَمّى، الرَّجُلَ الذى كُنتُ مَعَهُ

فى عَرَبَةِ الحنطور بالأقْصُرِ؟».

أحَسَّ مصطفىَ بالصَّدْمَةِ لِهَذا الاعْتِراف العَلَنِيِّ الجَرىءِ الَّذِى صَدَرَ عَنْ رَجاءَ !

ولم يكُـنْ والِدُهـا الحاجُّ عَبْـدُ المُنعِمِ أقَلَّ منه شـعُورًا بالصَّدْمَةِ والدَّهْشةِ !.

ولم تترُكْ رَجاءُ وَقْتًا لاسْتِنتاجاتٍ خاطِئةٍ، فعادَتْ تقولُ لابْـنِ عَمِّها فـى صَوْتِها البارِدِ الجـافِّ : «ألم يَقُولُوا لكَ إنه كانَ يضـعُ على عينيْهِ نظَّارَةً سَـوْداءَ لَها إطارٌ ذهَبىٌّ ثمينٌ ؟».

واتّجَهـتْ أبْصـارُ كُلِّ مَـنْ فى الغرْفَـةِ إلى وَجْهِ الأستاذِ محسـن، وتركَّزتِ العُيونُ عَلَى النظَّارَةِ الَّتِى يضعُهـا فَوْقَ عينيْـهِ. وللمَرَّةِ الثانِيَـةِ تهزُّ الصَّدْمَةُ مصطفىَ !.

لم يَتصـوَّرْ يَوْمًـا أنَّ رَجـاءَ يُمكِنُ أنْ تكـونَ بمثلِ هَذِهِ الجُرْأةِ والقُوَّةِ !



أمَّا الحاجُّ عَبْدُ المُنعِمِ فقَدْ مَدَّ كفَّهُ المُرْتعِشةَ يُشيرُ بها إلى الأسْتاذِ محسن، بَيْنما تحَشرَجَتْ فى فَمِهِ كَلماتٌ تُعبّرُ عَنْ حيرتِهِ الشّديدَةِ :

«تقْصِدينَ أنهُ الذِى كُنتِ مَعَهُ فى الأقْصُرِ؟!!».

هنا قَطَعَ الأستاذُ محسن الصَّمْتَ الذى خيَّمَ علَى الغرْفَةِ قائِلاً فى بَساطَةٍ، وهو غَيْرُ قادِرٍ أن يفهمَ سِرَّ الوُجوم الذى سَيْطَرَ علَى الحاجِّ وابْنِ أخيهِ : «هَلْ هُناكَ مُشكِلَةٌ فى أنها كانــتْ مَعِى فى الأقْصُرِ؟!.. أنـــا مُديرُ البَنكِ الذى بدأتْ تتعامَلُ معه هُناكَ مُنذُ أيامٍ».

ولم يَجدْ مصطفىَ فى هَذا التّصْريحِ ما يَسْمَحُ له أن يَنطِقَ بحَرْفٍ مــن كُلِّ ما اختارَهُ مِنْ عِبــاراتٍ جارحَةٍ وغاضِبَةٍ ومُتشفّيَةٍ اسْتعَدَّ لِيُغرِقَ تحْتَ وابلِها ابْنَةَ عَمِّهِ رجاءَ !..

لَكِنّهُ، فى تِلْكَ اللَّحْظَةِ، وجدَ نفسَهُ ينطِقُ بصُعوبَةٍ عبارَةً واحِدَةً كُلُّها تســاؤلٌ : «بَنكٌ تتعامَلُ معهُ فِى الأقْصُرِ؟!.. بَنكٌ فى عَربةِ حنطورٍ؟!».

وفى نفسِ البَســاطَةِ قالَ الأستاذُ محسن وهُوَ يُخرِجُ من حَقيَبتِهِ وَرَقةً رَسمِيَّةً كَبيرَةً :

«كانتْ ســيَّارَةُ البَنكِ مُعطَّلَةً وَفِى الإصْلاحِ، فَذهَبْنا إلَى مَكْتبِ الشَّــهْـرِ العَقارىَّ لِتقومَ رجــاءُ بَتوْقيعِ هَذا التَّوْكيلِ الرَّسْمِىِّ، لأتولَّى نِيابَةً عنها مُختلفَ الإجْراءاتِ بغيْرِ حاجَةٍ إلى تردُّدِها عَلَى البَنْكِ مَرَّاتٍ أخرَى فى الأقْصُرِ..».

ولأنَّ الحــاجَّ عَبْـدَ المُنعِمِ لَمْ يَسْــبقْ أنْ تعامَــلَ مع أيِّةِ بُنوكٍ، فقَدْ راحَ يُردِّدُ وهُوَ غَيْرُ مُصدِّقٍ :

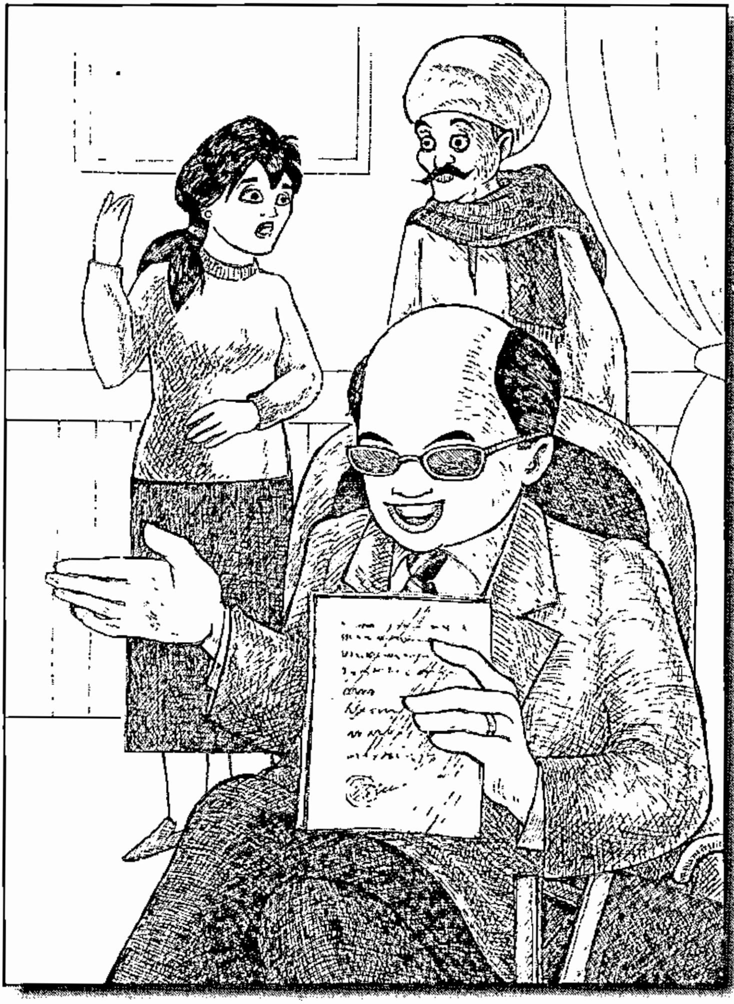
«هِىَ تتعامَلُ مَعَ بَنكٍ ؟!!».

التفتــتْ رَجاءُ إلى والِدِها، وقالَتْ فى لَهْجَةٍ حاوَلَتْ أنْ تجعَلَها أكْثرَ رقَّةً :

«لَقدْ أنشــؤوا البُنوكَ يــا والِدِى لِنحْتفِظَ فــى خزائِنِها بالأشياءِ الثَّمينةِ..».

قالَ الوالِدُ وقَدْ بدَأ الهُدوءُ يَعودُ إلَيْهِ :

«ولماذا أخفَيْتِ الأمْرَ عَنِّى ؟!».



قالَــتْ فى ثِقَةٍ وهِىَ تســدِّدُ نظَراتِها إلَى مُصْطفَى الَّـذى اعْترَاهُ الشّــحوبُ : «لَنْ نبيعَ الأرْضَ يا والِدِى، ولن توقعَ شرِكَةُ الجَرَّاراتِ الحَجْزَ علَيْها ..».

ثمَّ تمَهَّلَتْ قَبْلَ أنْ تضيفَ :

«أخبرْهُم يا أسْــتاذُ مُحْسِــن أنّنِى كُنتُ أنتظِــرُ مُوافَقَةَ البَنكِ علَى القَرْضِ».

قالَ مُحْسِن وكأنّه يَعْتذِرُ عَنِ التّأخيرِ :

«كانَ يَجِــبُ انتِظارُ تقْييم الخُــبَراءِ لِقيمَةِ الوَديعَةِ الَّتى قَدّمَتها الآنِسَةُ رَجاءُ، والَّتِى يَحْتفِظُ بها البَنكُ حالِيًّا ضمانًا لِلقَرْضِ».

تســاءلَ الأبُ فــى حِــيرَةٍ : «أىَّ قَــرْضٍ؟!.. وأيَّــةَ وَديعَةٍ؟!!».

عادَتْ رَجاءُ تقولُ : «إذا كانَ لابُدَّ لابْنِ عَمّى أَنْ يَعْرِفَ، فقــد أوْدَعْتُ الذّهَــبَ الَّذى تركَتــهُ لى والِدَتِى، كَضمانٍ لِقَرْضٍ سَيُعطيهِ لنا البَنكُ لِنسدِّدَ به الدُّيونَ يا والِدِى..».

عادَ الأسْتاذُ مُحْسِن يَفْتحُ حَقيبَتهُ ، وأخرَجَ وَرقَةً مُلوَّنةً صَغيرَةً يَعْرِفُها جَيِّدًا كُلُّ مَنْ يَتعامَلونَ مَعَ البُنوكِ، قالَ وهُوَ يُقدِّمُها إلَى رَجاء :

«تفضَّلِي يا آنِسَةُ رَجاءُ .. هَذا هُوَ الشَّيكُ الَّذِى كُنتِ تنتظِرينهُ».

صاحَتْ شَيْماءُ فى حَماسٍ : «قُلْتُ لَكِ يا رَجاءُ إنَّ والدى سيُنفِّذُ وَعْدَهُ مَهْما كانتْ مَشاغِلَهُ ! هَيَّا ابْتسِمى فقَدْ ملأتْ مَخاوفُكِ قَلْبى رُعْبًا ! !».

وتقدَّمَتْ رَجاءُ تتسلَّمُ الشَّيكَ مِنَ الأسْتاذِ مُحْسِن وهِىَ تجاهِدُ لِترْسِمَ ابْتِسامَةً علَى وَجْهِها.

وفى مُحاوَلَةٍ لِلتّغلُّبِ علَى مَخاوفَ وإرْهاقٍ وعَدَمِ نوْمِ يومَيْنِ كامِلَيْنِ، قالَتْ رجاء لِشيماء مُتجاهِلَةً ابْنَ عَمِّها مصطفى كُلَّ التّجاهُلِ :

«أتمنَّى أنْ يكونَ لى زَوْجٌ فى مِثلِ شَهامَةِ والِدِكِ يا شيْماءُ ! ».

ولـم يُلاحِـــظِ المُتجمِّعـونَ فى غُرْفَــةِ «أبلة ابتهاج» أنَّ مُصْطَفَــى ابْنَ العَمِّ ظَلَّ يَتراجَــعُ نحْوَ بابِ الغرْفَةِ، إلَى أنْ خَرَجَ بغيْرِ أن يَشْعُرَ بِهِ أحَدٌ !

١٦

الْتفتَــتْ رَجَــاءُ إلَى والِدِهــا لِتقُـولَ وَدَمْعَةٌ تسْــقُطُ مِنْ عينيْها :

«لسْــتُ أريدُكَ أن تغْضبَ يا والِدِى لأننى كَتمْتُ الأمْرَ عَنكَ .. كُنتُ أخْشــى أنْ يَحْدُثَ ما يُعطِّــلُ المُوافَقَةَ علَى القَرْضِ فَتلومَنِى، كمَــا كُنتُ أتفَادَى غَضبَكَ عِندَما تعْرِفُ أنّنِى خالفْتُ وَصِيَّتكَ لى بشــأنِ كنزِ الذهبِ الَّذى تركَته لى والِدتِى».

قالَ الأبُ فِى احْتِجاج :

«لَكِنّهــا دُيونــيِ أنا الّتِى تســدِّدينها – أنــتِ – الآنَ يا رجَاءُ !».

وفى ابْتِســامَةٍ كُلُّهــا ثِقَةٌ أحاطَتْ رَجــاءُ كتفَىْ والِدِها

بذِراعِها وهِيَ تجيبُ :

«بل رَجاءُ هِيَ الَّتِي تسدِّدُ قليلاً مِنْ دُيونٍ كَثيرَةٍ، تدينُ بها لوالِدِها الحاجِّ عَبْدِ المُنعِمِ !».

